الإيمان بالقدر

إعداد
د. على محمد محمد الصَّلاَّبي

بطاقة الفهرسة

اســـم الكتـــاب:	الإيمان بالقدر
المؤلـــــــــف:	د. على محمد محمد الصَّلاَّبي
الطبعــــــــــة:	طبعة أولى / 1431هـ - 2010 م
الناشـــــــــر:	مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيـــداع:	

مكتبـــة جزيرة الورد - القاهـــرة / ميدان حليـــم
خلف بنك فيصل شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا
012/9961635 - 02/27877574
010/0004046 - 010/0104115

Mail: info@alsallaby.com
Website: www.alsallaby.com

الإهــداء

إلـى كـل إنسـان فـي الوجـود يبحـث عـن حقيقـة الإيمـان بالقدر أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، قال تعالى:

{فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا} [الكهف: ١١٠]



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}

[الفرقان: ٢]

* * *

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)} [آل عمران: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)} [النساء: ١]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

هذا الكتاب يتحدث عن القدر. وقد سرت على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة في بيان هذا الركن من الإيمان، وابتعدت كل البعد عن مناهج الفرق الكلامية والمذاهب الفلسفية، وحرصت على أن أبين ما كان عليه رسول الله

وأصحابه من صفاء ووضوح في أصول الإيمان.

وهذا الكتاب يستهدف مخاطبة العقول، وأحياء القلوب، وتحريك الفطر، وربط الناس بالخالق العظيم، وبيان ما يجب معرفته على المكلف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل، وما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل؛ فهو أسمى المقاصد. والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه؛ فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ويدور في جميع تصاريفه عليها، فالعدل قوام الملك، والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين{أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ} [الأعراف: ٥٤].

ولقد وقفت على تجارب علماء كبار ممن خاضوا في بحر علم الكلام، وكادوا أن يهلكوا لولا رحمة الله بهم، وقدموا لنا خلاصة تجاربهم المريرة؛ لكي نستفيد منها الدروس والعبر، وحثوا الناس على التمسك بالكتاب والسنة، وهدي الصحابة الكرام ومن هؤلاء:

1- أبو الحسن الأشعري: قال:..... قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وما روى عن الصحابة التابعين، وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون.

2- أبو حامد الغزالي: قال: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد

ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً، وما ركبوا ظهر اللّجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان.

3- إمام الحرمين الجويني: قال: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي.

4- الفخر الرازي: قال:

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات{ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾} [طه: ٥]،{إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ} [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا} [طه: ١١٠]. ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

نهاية إقدام العقول عقال ::: وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ::: وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ::: سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ::: رجال فماتوا والجبال جبال

فهذا الكتاب يتحدث عن القدر بعيداً عن صخب الأهواء، وأغشية الشبهات، وضجيج المجادلات، فقد طالعت ركاماً هائلاً من الميراث التاريخي في هذا الباب فرأيت من الفائدة تركها والعودة إلى عصر النبوة والصحابة للوصول إلى يقين ذلك الجيل المبارك

وطمأنينته والذي نهل من المعين الصافي الذي تكفل الله بحفظه والمتمثل في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قال تعالى:{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾}
[الأنعام: ١٥٣].

وقال رسول الله ﷺ :﴿تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله﴾

وقال ﷺ :﴿من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد﴾.

ففي هذا الكتاب كان الحديث في المبحث الأول عن القضاء والقدر في اللغة والشرع، والفرق بين القضاء والقدر، وأدلة القرآن على وجوب الإيمان به، وحديث القصص القرآني عنه، كقصة نوح وإبراهيم ويوسف، وموسى وزكريا ومريم وصاحب الجنتين، والأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان به، والوصايا النبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر، ونهى الرسول ﷺ عن الخوض فيه، وحديث الصحابة عنه. وفي المبحث الثاني: كان التفصيل عن مراتب القدر، كالعلم، والكتابة، والإرادة والمشيئة، والخلق، وتضمن المبحث الثالث: التقادير الخمس كالتقدير الأزلي، وتقدير يوم الميثاق، والعمري والحولي، واليومي، وتضمن أيضاً: أنواع الإرادة الكونية والشرعية والفرق بينهما.

في المبحث الرابع: كان الحديث عن لا حول ولا قوة إلا بالله، وعن فضلها ومعناها وما تضمنته من معان عقدية عظيمة،

كالإقرار بالتوحيد، والتوكل على الله وتفويض الأمور إليه، كما كان الحديث في هذا المبحث عن الاحتجاج بالقدر على المعاصي.

وفي المبحث الخامس، تكلمت عن الهداية والإضلال ومراتب الهداية، كالهداية العامة، وهداية الإرشاد والدعوة والبيان، وهداية التوفيق والإلهام، والهداية إلى طريق الجنة، كما أشرت لأسباب الهداية التي ذكرت في القرآن كالمحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية، واستعمال السمع والبصر والعقل، والعلم، والإيمان، والاهتداء، والدعاء، والاعتصام بالله، والاتباع والطاعة، والخشية والإنابة، والبراءة من الكافرين، والجهاد، كما أشرت إلى الضلال ومراتبه، وحرية العبد في اختياره للهدى والضلال، كما لخصت أهم أسباب الضلال، كعدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكر في آيات الله، والذنوب والمعاصي، واتباع الشيطان، والجهل واتباع الظن، والجدال في الله وآياته بغير علم، والغفلة، والتعصب بالباطل، والتقليد المذموم، والشك والريب، والجحود، والتأبي والعناد والتعنت، والكبر، وحب الدنيا والاغترار بها واتخاذها لهواً، واتباع الهوى، والاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين، والكفر، والغلو في الأنبياء والصالحين، وصحبة السوء والبيئة الفاسدة، والتشبه بالضالين، والابتداع في الدين.

وفي المبحث السادس: تكلمت عن سنة الله في الأخذ بالأسباب وأشرت إلى الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم، كالأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله عز وجل، كالدستور العادل والمنهج التربوي للشعوب، والاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية

وتوظيفها في الخير، وفقهه في إحياء الشعوب وأخلاقه القيادية، وكالأسباب التي اتخذها سليمان، كفقهه في إدارة الدولة من دوام المباشرة لأحوال الرعية، وعمل قوانين تضبط الأمور، والاهتمام بالأجهزة الأمنية، وبنصر دعوة التوحيد، والترفع عن حطام الدنيا، والمقدرة على اتخاذ القرار الصحيح، والاستفادة من المهارات والمواهب، كما كان الحديث عن الأسباب والتوكل، وبيان أن القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب، جهل بالدين، وأهمية التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب وعن العلاقة بين الأسباب والمسببات، وتأثير السبب في المسبب، وشرح حديث رسول الله ﷺ :﴿**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**﴾، وعلاقة الجزاء الأخروي بالأسباب، والحث على طلب الأسباب في الأمور المكفولة، ومراعاة صورة الأسباب في الخوارق، وتهيئة الأسباب لوقوع مراد الله عز وجل، وكون الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتقاء الموانع، وبيان أن إنكار قانون السببية يؤدي إلى إبطال حقائق العلوم، وشرح مقولة منازعة الأقدار بالأقدار، والعلاقة بين الدعاء والقدر.

وفي المبحث السابع: كان الحديث عن العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل، وأن الأصل في العقاب المماثلة، وصور من الجزاء بجنس العمل في الدنيا، كالاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا، وتسليط الظالم على مثله، واستئصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه، ونصر الله منوط بنصرته للدين والحق، وسلب النعمة عمن منعها مستحقيها، وتيسير الله لمن يسَّر على عباده، وكان الحديث عن الجزاء بجنس

العمل في الآخرة، كمعاملة أهل الفضل بالفضل، وترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه، والتهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهكمون بالمؤمنين في الدنيا، كما كان الحديث عن الجزاء بجنس العمل بين العباد.

وفي المبحث الثامن: تحدثت عن الحكمة والتحسين والتقبيح وتكليف ما لا يطاق، فكان الحديث عن الحكمة في أفعال الله وشرعه، وفعل الأصلح، ومعنى الاستطاعة والتكليف بما لا يطاق.

وفي المبحث التاسع تكلمت عن سنة الله في الآجال، وقدرة الله وثمار الإيمان بالقدر والتي كان من أهمها؛ الإقدام على عظائم الأمور، والقضاء على الكسل والتواكل والثبات في مواجهة الطغيان، والصبر عند نزول المصائب، والعز في طلب الحوائج، والسكينة وراحة النفس، وسكون القلب، والخوف والحذر من الله، والخلاص من الشرك، والقضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات، والاستعانة بالله، والاعتماد على الله وحده، والاعتراف بفضله، والاستغناء بالخالق عن الخلق، والاعتراف بالذنب والمسارعة للمغفرة والتوبة ثم كانت الخاتمة.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب 2010/3/1م الموافق 15/ربيع الأول/1431هـ والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنّه وكرمه وجوده، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني من أجل إتمام

هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب ألاَّ ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه بالدعاء في ظهر الغيب.

قال تعالى:{رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [النمل: ١٩].

قال تعالى:{ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾} [فاطر: ٢].

قال تعالى:{ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾} [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله، والصواب لخدمة دينه العظيم.



المبحث الأول

القضاء والقدر

المبحث الأول: القضاء والقــدر

أولا: القضاء والقدر لغة وشرعا:

1- معنى القضاء لغة: إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته، وقال ابن الأثير في النهاية: القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه فمعنى القضاء في اللغة هو: إحكام الشيء، وإتمام الأمر، وهذا هو معنى القضاء، وإليه ترجع جميع معاني القضاء الواردة في اللغة، وقد يأتي بمعنى القدر.

وقد ورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيراً في القرآن الكريم، وكل معانيه التي قد تأتي متداخلة أحياناً - ترجع إلى الأصل السابق فمن المعاني التي ورد بها:

- **معنى الأمر**: قال تعالى:{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣]، أي: أمر سبحانه وتعالى - بعبادته وحده لا شريك له.

- **معنى الإنهاء**: ومنه قوله تعالى:{وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ} [الحجر: ٦٦]، أي: تقدمنا إليه وأنهينا.

- **معنى الحكم**: قال تعالى:{فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ} [طه: ٧٢]، أي: اصنع واحكم وافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك.

معنى الفراغ: ومنه قوله تعالى:{فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ} [فصلت: ١٢]، أي: فرغ من تسويتهن سبع سماوات في يومين، ومنه قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ} [القصص: ٢٩]، أي: فرغ من الأجل الأوفى والأتم.

- **ومعنى الأداء**: ومنه قوله تعالى:{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ}

[البقرة: ٢٠٠]، أي: أديتموها وفرغتم منها.

- ومعنى **الإعلام**: ومنه قوله تعالى:{وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ} [الإسراء: ٤]، أي: تقدمنا وأخبرنا بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل إليهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين.

- ومعنى **الموت**: يقال: ضربه فقضى عليه، أي: قتله، قال تعالى: {فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ} [القصص: ١٥]، أي: مات.

- وهناك اشتقاقات أخرى ذكرتها كتب اللغة، ومن خلال عرض هذه المعاني يتبين ما بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي من رابط قوي، فتقدير الله للأمور وكتابته لذلك، وكونها تجري بحكمة ودقة على حسب ما أرادها سبحانه وقضاها كل هذه المعاني يوحي بها المعنى اللغوي بمختلف معانيه الورادة.

2 - **القدر لغة**: القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته. ويطلق القدر على الحكم والقضاء أيضاً، ومن ذلك حديث الاستخارة " فاقدُرُه ويسرّه لي ".

والقدَر بتحريك الدال أو تسكينها معناه الطاقة قال تعالى: {وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ} [البقرة: ٢٣٦]، طاقته.

ويأتي أيضاً القدر بمعنى: التضييق، قال تعالى:{وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ} [الفجر: ١٦]. يعني فضيق عليه، ومنه قوله تعالى في حق نبيه يونس - عليه السلام -{فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧]، أي: لن نضيق عليه، وليس كما ظن بعض الناس أن يونس - عليه السلام - شك في قدرة الله كلا.{فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧]، أي: لن نضيق عليه.

وقدرت الشيء أقدره من التقدير، ومنه الحديث:﴿فإن غم عليكم فاقدروا له﴾. أي: قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يوماً، وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه يدلكم على أن الشهر تسع وعشرون أم ثلاثون.

وقدر كل شيء ومقداره: مقياسه، يقال: قدره به قدراً إذا قاسه، والقدر من الرحال والسروج: الوسط.

ويتبين لنا من التعريف اللغوي للقضاء والقدر: أن رابطاً قويًّا جدًّا بينهما وبين التأصيل اللغوي والشرعي كذلك.

3 - المعنى الشرعي للقضاء والقدر:

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه - سبحانه - أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته - سبحانه - لذلك ومشيئته لها، ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا وخلقه لها.

ومراتب القدر أربع: كما هو ظاهر في التعريف

- العلم. - الكتابة.
- المشيئة. - الخلق والتكوين.

4 - الفرق بين القضاء والقدر:

من أهل العلم من قال: لا فرق بين القضاء والقدر، فكل منهما يدخل في معنى الآخر، فإذا أطلق التعريف على أحدهما فيشمل الآخر بمعنى: إذا أطلق التعريف على القضاء، فإنه يشمل القدر،

وإذا أطلق التعريف على القدر فإنه يشمل القضاء.

قال آخرون: لا، هناك فرق بين القضاء والقدر، فالقضاء: هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل.

أما القدر: فهو الحكم في وقوع الجزئيات لهذه الكليات التي قُدّرت في الأزل، فالقضاء أشمل وأعم من القدر.

ومنهم من قال: بأن القدر: هو التقدير، والقضاء، هو التفصيل بمعنى: أن القدر: هو التقدير القديم الأزلي، والقضاء: هو التفصيل لهذا القدر الكلي في أوقات معلومة بمشيئة الله تبارك وتعالى على الكيفية التي أرادها أو خلقها عز وجل.

فالقضاء والقدر لفظان متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن افترقا، يعني: إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا بمعنى: إذا ذكر القضاء والقدر معاً، فالمعنى لكل مفردة منهما واحد، وإذا أفرد اللفظان صار لكل مفردة منهما معنى يختلف عن معنى الآخر. فالقدر: هو ما قدره الله سبحانه وتعالى في الأزل أن يكون في خلقه التقدير، وعلى هذا يكون فالقدر سابقاً على القضاء، وأما القضاء إذا ذكر مع القدر فكلاهما معنى واحد مشترك، ويرى الخطابي: أن القضاء والقدر أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه.

والله أعلم أنه لا فرق بين القضاء والقدر، والذين قالوا بالتفريق بين القضاء والقدر لغة واصطلاحاً لا دليل لديهم من السنة الصحيحة، لا سيما وقد اتفقوا جميعاً على أنه إذا أطلق لفظ من هذين اللفظين فإنه يشمل الآخر.



ثانيا: أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر:

وردت في كتاب الله تعالى - آيات تدل على أن الأمور تجري بقدر الله تعالى، وعلى أن الله تعالى علم الأشياء وقدرها في الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدرها - سبحانه وتعالى.

1 - قال تعالى:{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)} [القمر: ٤٩]، قدر الله كل شيء في الأزل وكتبه سبحانه.

2 - وقوله تعالى:{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا} [الأحزاب: ٣٨]. أي قضاء مقضيا، وحكماً مبتوتاً وهو كظل ظليل، وليل أليل، وروض أريض في قصد التأكيد.

3 - وقوله تعالى:{فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} [طه: ٤٠]، أي أنه جاء موافقاً لقدر الله تعالى وإرادته على غير ميعاد.

4 - وقوله تعالى:{فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)} [المرسلات: ٢١ - ٢٣]. أي: جعلنا الماء في مقر يتمكن فيه وهو الرحم، مؤجلاً إلى قدر معلوم قد علمه الله - سبحانه وتعالى - وحكم به، فقدرنا على ذلك تقديراً فنعم القادرون نحن، أو: فقدرنا ذلك تقديراً فنعم المقدرون له نحن - على قراءتين، والقراءة الثانية:{قدَّرنا} بالتشديد توافق قوله تعالى:{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)} [عبس: ١٩].

5 - وقال تعالى:{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢]: أي: كل شيءٍ مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه

ومليكه وإلهه، وكل شيءٍ تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

6 - وقال تعالى:{وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨] أي: بأجل، كحفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً.

7 - وقال تعالى:{ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾} [الحجر: ٢١].

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيءٍ سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف،{وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} [الحجر: ٢١] كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة.

- وقال تعالى:{نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾} [الواقعة: ٦٠]، أي: صرفناه بينكم{وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} [الواقعة: ٦٠] أي: وما نحن بعاجزين.

- وقال تعالى:{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾} [فصلت: ١٠].

- وقال تعالى:{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾} [عبس: ١٩]، أي: قدر أجله ورزقه وعمله، شقي أو سعيد.

وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله قدر كل شيء.



ثالثا: القصص القرآني والإيمان بالقدر:

كان جميع الأنبياء والرسل ومن تبعهم معتقدين بعقيدة التوحيد الخالصة الصحيحة، كما أوحى إليهم ربهم تبارك وتعالى، والإيمان بصفات الله تعالى، ومنها، العلم والقدرة والإرادة والخلق كلها داخلة في التوحيد الذي هو أساس دين الإسلام، وتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء وغيرهم، وبين قولهم بالقدر، وبأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون.

1 - في قصة نوح عليه الصلاة والسلام: قال تعالى:{ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾} [هود: ٣٢ - ٣٤].

فهم قالوا لنوح عليه السلام مستعجلين: يا نوح قد جادلتنا أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك، فآتنا بما تعدنا من العذاب، فأجابهم نوح مبيناً: أن الأمر كله بيد الله - سبحانه وتعالى -، فهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ثم بين نوح أيضاً أن نصحه لا ينفع إذا كان الله يريد إغواءهم، فإرادة الله غالبة، ومشيئته نافذة.

2 - وفي قصة إبراهيم - عليه السلام - مع ابنه إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - لما أراد ذبحه بأمر الله، يقول:{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾} [الصافات: ١٠٢].

وقال تعالى:{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ } [الصافات: ١٠٢] أي: بلغ أن ينصرف معه ويعينه، وفي هذا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، فرأى أبوه في المنام أن الله يأمره بذبحه، ورؤيا الأنبياء وحي، فقال الابن مستسلماً: {يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ } [الصافات: ١٠٢]، فأخبر أنه موطّن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله. وهذا هو الشاهد.

3 - وفي قصة يوسف - عليه الصلاة والسلام - يقول الله تعالى: { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ }[يوسف: ١٠٠].

{إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ} أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً ويسره وقدره، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحَكِيمُ: في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده، فيوسف - عليه السلام - كان مؤمناً أن ما جرى ويجري له ولغيره إنما هو بقضاء الله وقدره.

4 – وموسى – عليه الصلاة والسلام – ذكر الله عنه إيمانه بأن الهداية والإضلال بيد الله، وهما تحت مشيئته، فقال تعالى في معرض قصته: { وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ

وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾}[الأعراف: ١٥٥]، فقوله:{لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ}: أي: لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا من قبل هذا الوقت، قال موسى اعترافاً بالذنب وتلهفاً على ما فرط من قومه، أو المعنى: لو شئت أهلكتهم وإياي من قبل خروجنا حتى يعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهمونني، وهذا على أن:{لَوْ} للتمني. ثم قال:{إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ}: أي ما هو إلا اختبارك وامتحانك تضل بهما من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، فأنت وحدك لك الملك ولك الخلق والأمر، فقول موسى هذا يدل على تصديقه وإيمانه بالقدر.

5 - وفي قصة موسى مع الشيخ الكبير حينما ورد ماء مدين يقول تعالى عن الشيخ:{قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾} [القصص: ٢٧]، والشاهد قوله:{سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي: حسن الصحبة والوفاء، أو الصلاح العام ويدخل فيه صلاح المعاملة من باب أولى، وقيد ذلك بمشيئة الله تفويضاً للأمر إلى توفيق الله ومعونته.

6 - ويقول تعالى عن موسى - عليه الصلاة والسلام - والخضر بعد أن بين له أنه لا يستطيع الصبر معه، فأجابه موسى كما قال الله:{قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾} [الكهف: ٦٩].

سأصبر بمشيئة الله، ولكن هل الاستثناء شمل قوله:{وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا} أو لا؟.

قولان للمفسرين، والأرجح شموله لهما، جاء في تفسير الجلالين:{قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾} أي: وغير عاص{لَكَ أَمۡرٗا} تأمرني به، وقيد بالمشيئة؛ لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم، وهذه عادة الأنبياء والأولياء ألا يثقوا إلى أنفسهم طرفة عين. فتعليق الأمر بمشيئة الله تعالى دليل على إيمان موسى بأن أي شيء لا يكون إلا إذا أراده الله وشاءه، وقصة موسى والخضر كلها في باب القدر، وقد وردت بتمامها في صحيح البخاري، وقال ﷺ :﴿يرحم الله موسى وددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما﴾.

7 – وبعد أن خسف الله بقارون وداره: يقول تعالى عن قومه: { وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾} [القصص: ٨٢].

فقوله:{يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ} لبعض عباده ويُضيّقه على بعضهم فله الأمر، يفعل ما يشاء - سبحانه وتعالى.

8 - ويقول تعالى عن زكريا ومريم:{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ }

[آل عمران: ٣٧].

فقوله:{إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ}: الراجح أنه من كلام مريم، وهو يفيد التقرير بأن الله قد يرزق عباده بغير حساب، وأن ذلك مرتبط بمشيئته سبحانه.

9 - وفي قصة الرجل صاحب الجنتين، يقول تعالى عن صاحبه أنه قال له وهو يحاوره:{ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾} [الكهف: ٣٩] أي: هلا قلت عندما دخلتها:{مَا شَآءَ ٱللَّهُ}، أي: الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان، فترد أمر جنتك من الحسن والنضارة لخالقه سبحانه، ولا تفتخر به؛ لأنه ليس من عملك وصنعك{لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ} أي: وهلا قلت:{لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ}، معترفاً بأنها وما فيها بمشيئة الله - تعالى - إن شاء أبقاها، وإن شاء أفناها، وأنك عاجز عنها، وعن غيرها لولا معونة الله.

10 - والجن: يذكر تعالى أنهم قالوا:{وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾} [الجن: ١٠]، فهم بعد أن منعوا من استراق السمع جزموا أن الله أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً من خير أو شر، فقالوا:{وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ} الآية، فهم مؤمنون بأن الله له الإرادة المطلقة، وقد كانوا مؤدبين، فقد أضافوا الخير إلى الله - تعالى - والشر حذفوا فاعله تأدباً.

إن الإيمان بالقدر داخل ضمناً في الإيمان بالله، بل هو جزء حقيقي منه؛ لأن معناه: الإيمان بإحاطة علم الله تعالى بكل شيء، وشمول إرادته لكل ما يقع في الكون، ونفوذ قدرته في كل شيء. والإيمان بالقدر الذي جاء به الإسلام هو: إيمان

بمقتضى الكمال الإلهي الذي تميزت به عقيدة الإسلام، وصححت به أوهام الفلسفات، وانحراف الديانات في شأن الألوهية، فليس الإله في الإسلام إلهاً معزولاً عما يجري في الكون، لا يعلمه ولا يتدخل فيه بتدبير ولا تصريف كـ (إله أرسطو) الذي لا يعرف إلا ذاته، ولا يعلم عن هذا الكون شيئاً، ولا يدبر فيه أمراً. أو (إله أفلوطين) الذي لا يعلم ذاته نفسها. وليس كـ (إله المجوس) الذي له نصف الكون يدبره ويتصرف فيه، وهو ما يتعلق بالخير والنور، أما النصف الآخر وهو ما يتصل بالشر والظلمة، فذلك من شأن إله آخر، فهما إلهان إذن:

أحدهما: إله الخير والنور، والآخر: إله الشر والظلمة، والحرب بينهما سجال، حتى ينتصر إله الخير في النهاية. وليس هو ك " آلهة اليونان " التي تخبط في تصرفاتها خبط عشواء والتي تعيش في حرب مع البشر، حتى إن رواياتهم عن القدر وضرباته للناس تمثله هازئاً بهم، متحدياً لهم، يطاردهم ويتجنى عليهم، ولهذا كثر الحديث في أدبهم عن قسوة القدر، وعن القدر الأعمى، والقدر الغاشم ونحو ذلك. وليس كـ (إله بني إسرائيل) الذي تصوره توراتهم المحرفة، وكتبهم وأساطيرهم، غيوراً منتقماً مدمراً، متعصباً لشعب إسرائيل دون العالمين، خائفاً من الإنسان أن يأكل من شجرة الحياة، فيصبح كواحد من الآلهة، نادماً على ما يفعله في بعض الأحيان، عاجزاً عن مقاومة الإنسان، حتى إن إسرائيل ليصارعه فيصرعه، ليس هذا الذي تتصوره أو تصوره الديانات والفلسفات هو إله الإسلام.

إنما الإله في الإسلام هو مالك الملك، وصاحب الخلق والأمر، رب العالمين، هو خالق كل شيء عن قبضة قهره، ولا حي أو جماد عن دائرة سلطانه، يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء، ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو مع هذا بر كريم، عدل رحيم، عليم حكيم، لا يظلم أحداً، ولا يأخذ مخلوقاً بذنب غيره، ولا يبخسه أجر سعيه، فلا يخاف أحد عنده ظلماً ولا هضماً، والظلم: أن يعاقبه بما لم يفعل والهضم: أن يضيع أجر ما قد عمل، والله سبحانه لا يعاقب بغير سيئة ولا يضيع أجر حسنة، بل يضاعفها كما قال سبحانه:{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾} [النساء: ٤٠].

هذا هو الإله الذي يجري كل شيء في الكون بتقديره وتدبيره بعلمه ومشيئته ومقتضى حكمته، وعلى هذا الأساس كان إيمان السلف بالقدر من الصحابة، ومن تبعهم بإحسان، فليس الإيمان بالقدر إيماناً بالبخت والمصادفات والعشوائية في الكون، كهؤلاء الذين ينقلون إلى العربية التغييرات اليونانية والغربية عن القدر، فتراهم يقولون: القدر الأعمى، والقدر الأحمق، والقدر الغاشم، وعبث الأقدار ونحوها، وهي ألفاظ وتعبيرات يبرأ منها الإسلام والمسلمون، إنما هو إيمان بإحاطة علم الله، وعموم مشيئته، وشمول قدرته، وربوبيته لكل ما في الكون، وإن كل ما يحدث في الوجود إنما يتم بناء على ترتيب أو تصميم سابق، وتدبير قدير، وتقدير عزيز عليم.

رابعاً: الأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر:

دلت نصوص السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدًّا، ولكن نعرض لبعضها، وسنبين البعض الآخر في الأدلة التفصيلية عند الحديث على مراتب القدر ومن هذه الأحاديث:

1 - حديث جبريل: المشهور برواياته المختلفة، فقد قال ﷺ: ﴿الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره﴾.

2 - حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه﴾.

3 - حديث علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر﴾.

فالمراد بالحديث نفي أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الأربع:شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ويؤمن بالموت: أي: فناء الدنيا، أو المراد: اعتقاد أن الموت يحصل بأمر الله لا بفساد المزاج، كما يقول الطبائعيون، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر، وأن كل ما يجري بقدر الله - تعالى - وقضائه، ونفي أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الأمور يدل على وجوب الإيمان بها.

4 - **حديث طاوس**، قال: أدركت أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يقول: قال رسول الله ﷺ :﴿**كل شيء بقدر حتى العجز والكيس**﴾ أو:﴿**الكيس والعجز**﴾.

5 - **وعن أبي هريرة** رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت:{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾} [القمر: ٤٨ - ٤٩].

6 - **وقد ورد عن النبي** ﷺ التحذير من التكذيب بالقدر، وذلك في الحديث الذي رواه أبو الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال:﴿**لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر**﴾.



خامساً: وصايا نبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر:

كان الرسول ﷺ مربيًا ومزكيًا لنفوس أصحابه، وهي المهمة التي شرفه الله سبحانه بها، وتتجلى هذه التزكية، بأوضح صورها من خلال هذه الوصايا الثلاثة التي تُعد بحق نماذج العلاج النبوي لأمراض النفوس وتدريبها عمليًّا على التسليم لقضاء الله وقدره والرضا به.

الوصية الأولى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ﴿المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان﴾.

وفي هذا الحديث النبوي يبين الرسول ﷺ أن من أراد نيل محبة الله ورضوانه فعليه أن يبادر إلى تقوية إيمانه ومجاهدة نفسه، وطلب القوة في العلم والجسم، وغير ذلك من عناصر القوة النافعة التي تتضافر جميعها لتكوين شخصية المسلم الذي يحبه الله سبحانه، ولكي يحظى المسلم بذلك فلا بد له من الأخذ بالوصايا النبوية الواردة في هذا الحديث، وهي: أن يحرص على ما ينفعه، ويطلب العون من الله سبحانه ولا يعجز، وأن يسلم أمره لله فيما قدّر له، فلا يسخط ولا يشتكي من المصائب، ولا يدع للشيطان مدخلاً بقوله: لو أني فعلت كذا وكذا، فكلمة " لو " تجلب الحسرة والأسى، وتزيد اللوعة، وتورث القلق

والاضطراب، ولن يستطيع إعادة ما فات، ولا إحياء من مات مهما تحسر، وإنما سيجلب لنفسه الكآبة، ولجسمه الأمراض والآلام ويتعرض لغضب الله، باعتراضه على قدره، فالعلاج العملي أن يقول: قدّر الله وما شاء فعل، مُعلِناً استسلامه لأمر الله ورضاه بقضائه وأن يعود لسانه على هذا القول كلما ناله شيء يكرهه.

- **الوصية الثانية: دعاء الاستخارة:** عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ : يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول:﴿**إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخريك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم إن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فأقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به**﴾، ويسمي حاجته.

وهذه الوصية النبوية تعد تدريبًا عمليًّا على توطين النفس ورضاها بالقضاء والقدر، وتسليمها لما يقدر الله، اعتقاداً بأن ذلك هو الأصلح، والأنفع للعبد، فإذا همَّ المسلم بأمر من الأمور المباحة، من سفر أو زواج، أو تجارة أو غير ذلك فعليه أن يبادر إلى العمل بهذه الوصية النبوية، فيدعو بدعاء الاستخارة متذللاً أمام ربه، متواضعاً بين يديه، مستسلماً لأمره، راضياً

بحكمه، داعياً أن يختار الله له ما فيه الخير في دينه ومعاشه وعاقبة أمره، وأن يصرف عنه هذا الأمر إن كان فيه شر، ثم يعزم على هذا الأمر، فإن انشرح صدره له، ويسر الله طريقه، وهو الخير الذي اختاره الله، وإن جاء الأمر على عكس ذلك، فعليه أن يفرح؛ لأن الله صرف عنه شرًّا واختار له ما يصلحه، ولو لم يدرك الحكمة، فلتطمئن نفسه، ولا يبقى متعلقاً بهذا الأمر، أو قلقاً من أجله، وبهذه الوصية النبوية، يدرب المسلم نفسه عمليًّا على الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، ويجاهد نفسه على مخالفة هواها ويربيها على الالتزام بأمر الله؛ لأن في ذلك صلاح دنياه وآخرته.

روى الأعمش عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له، نظر إليه الله من فوق سبع سماوات، فيقول للملائكة: أصرفوه عنه، فإني أن يسرته له أدخلته النار، قال: فيصرفه الله عنه، قال: فيقول: من أين دُهيت؟ وما هو إلا فضل الله سبحانه.

ولذلك كان الرسول ﷺ يهتم كثيراً بدعاء الاستخارة ليعلمه لأصحابه، كما يعلمهم السورة من القرآن، وهذا دليل على غاية الاهتمام به، والحرص عليه

الوصية الثالثة: قال رسول الله ﷺ :﴿**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم**﴾. وفي رواية البخاري:﴿**إذا نظر أحدكم إلى من فُضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضل عليه**﴾.

وفي هذا الحديث دواء لداء الحسد والتشكي من الأقدار، فالنفس التي تتطلع إلى الآخرين لن ترضى بحالٍ من الأحوال كلما بلغت درجة من الغنى والجاه تعودتها فملتها، وتطلعت إلى المزيد، فهي دائماً في تلهف إلى كثرة المال، وتعلق به، وسخط وحسرة وازدراء للنعم، وجحود للمنعم، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ :﴿لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب﴾.

فإذا اتبع المسلم هذه الوصية النبوية فإنه سيعرف قدر النعمة ويرضى بما قسم الله له، وينال القناعة، ويحظى بالسعادة، ولو كان مبتلى بالفقر، أو المرض، أو المصائب المختلفة؛ لأنه إن كان فقيراً لا يملك وفرة من المال فلينظر إلى من ابتلى بالفقر المدقع والجوع الشديد، وإن كان مريضاً يشكو من بعض الآلام فلينظر إلى من ابتلي بعاهة أو مرض مزمن خطير، وهكذا يبقى دائماً مقدراً للنعمة راضياً بما قسم الله له شاكراً صابراً، ولو أخذ المسلمون اليوم بهذه الوصية النبوية لسعدت أحوالهم، واستقامت أوضاعهم، وعرفوا الثمرة الحقيقية للإيمان بالقضاء والقدر، وسارعوا إلى التنافس في التقوى والعمل الصالح والتقرب إلى الله عوضاً عن التنافس على حطام الدنيا الزائل.

نهي الرسول ﷺ عن الخوض في القدر:

- عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم:﴿ما لكم تضربون

كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم﴾.

وعن ثوبان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال:﴿إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا﴾.

- وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال للصحابة لما تنازعوا في القدر:﴿عزمت عليكم أن تنازعوا فيه﴾، وقد اختلف العلماء في توجيه هذه الأحاديث:

أ - فبعضهم رأى ثبوتها، واستدل بها على وجوب الوقف على الخوض والكلام في القدر، وقال: إن هذا أحسن المذاهب لمن آثر الخلاص والسلامة.

ب - وبعضهم رد هذه الأحاديث، وقال: إن أسانيدها كلها لا تخلو من مقال، فهي إذن ضعيفة لا يحتج بها.

جـ - والذي نرجحه أنها ثابتة، وأقل ما فيها أنها حسنة؛ لأن لها طرقاً يقوي بعضها بعضاً، وحينئذ فالجواب عنها كما يلي:

- إن المنهي عنه إنما هو الخوض فيها بالباطل، وذلك بالخوض في كل ما يتعلق بالقدر، ومحاولة معرفة وجه الحق فيه عن طريق العقل القاصر، ولا شك أن هذا لا يجوز.

- والقدر ركن من أركان الإسلام، وقد وردت فيه الآيات والأحاديث عن النبي ﷺ، فكيف يأتي النهي عن الكلام فيه؟ إن هذا دليل على أن النهي إنما هو منصب على الخوض فيه على وجه التنازع والاعتراض على الله - تعالى - لا وجه المعرفة

الصادقة من الأدلة الصحيحة.

- وفي الأحاديث نفسها ما يدل على ذلك، ألا وهو قوله:﴿إذا ذكر أصحابي فأمسكوا﴾ فهل معناه الإمساك عن ذكر الصحابة وفضائلهم وجهادهم؟ أم أن النهي منصب على شيء معين؟: وهو الإمساك عن ذكرهم بالباطل، وعما شجر بينهم - رضوان الله عليهم جميعاً - وكذلك يقال في القدر.

- والرسول ﷺ نهى الصحابة عن التنازع في القدر، وهذا حق؟ لأن التنازع مظنة الاختلاف، وهذا داع إلى القول فيه بغير الحق، وهو منهي عنه، وإلا فالقدر من أركان الإيمان، ولا بد من معرفة هذا الركن بالتفصيل كما جاء في الكتاب والسنة وأقوال السلف، حتى يتحقق الإيمان، وحتى يثمر ثماره المرجوة.

- وعلماء السلف الذين ذكروا القدر، وبحثوا فيه، بل ألفوا رسائل وكتباً مستقلة، هل معناه أنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ؟ وإذا كانت ترد حوله بعض الإشكالات، ألا يجب بيان الحق للناس حتى لا يضلوا؟ وحتى يكونوا على بصيرة من أمر دينهم؟

- أما ما يؤثر عن بعض العلماء من أن القدر سر لله في خلقه، فهذا صحيح يجب إدراكه لكل من يبحث في القدر، لكن هذا محصور في الجانب الخفي من القدر، ألا وهو كونه - سبحانه وتعالى - أضل وهدى، وأمات وأحيا، ومنع وأعطى، وقسم ذلك بين عباده بقدرته ومشيئته النافذة، فمحاولة معرفة سر الله في

ذلك لا تجوز؛ لأن الله حجب علمها حتى عن أقرب المقربين، أما جوانب القدر الأخرى وحكمه العظيمة، ومراتبه ودرجاته وآثاره، فهذا مما يجوز الخوض فيه، وبيان الحق للناس فيه، بل بيانه مما يندب إليه وينبغي شرحه وإيضاحه للناس؛ إذ الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التي ينبغي تعلمها ومعرفتها.



سادساً: في عهد الخلفاء الراشدين:

كان أمر العقائد في عهد الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ من سلامة العقيدة، والتسليم لله ورسوله في كل أمر وعدم الجدال والخوض فيما خاض فيه من بعدهم، وبالنسبة لعقيدة القضاء والقدر، كان موقف الصحابة والتابعين التسليم والإيمان به على الوجه الحق، كما بينه لهم رسول الله ﷺ ولم يكن يبدر منهم شيء إلا كما بدر من بعضهم في عهد الرسول ﷺ وسرعان ما يزول الالتباس بالإيمان القوي بعد البيان والإيضاح، ومن أقوال الصحابة في القضاء والقدر:

1 - قال أبو بكر - رضي الله عنه -: خلق الله الخلق فكانوا في قبضته، فقال لمن في يمينه: ادخلوا الجنة بسلام. وقال لمن في يده الأخرى: ادخلوا النار ولا أبالي فذهبت إلى يوم القيامة.

2 - خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة إلى الشام، ومعه جمهور المهاجرين والأنصار حتى قدم دمشق فوقع بالشام طاعون فخاف عمر أن يقدم بأصحاب رسول الله ﷺ، واستشار الصحابة في ذلك ممن معه من المهاجرين والأنصار، ومن كان بالشام فقيهًا، فاختلفوا عليه حتى جاء عبد الرحمن بن عوف فروى له عن النبي ﷺ :﴿إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً﴾. فحمد الله عمر ثم انصرف فخطبهم على باب الجابية، ليقص عليهم ويعرفهم سبب انصرافهم، فقال في خطبته كما أنزل الله في كتابه وأمر رسوله

استفتاح الخطيب بها: من يضلل الله فلا هادي له ومن يهدي فلا مضل له، فقال جاثليق النصارى: إن الله لا يضل أحداً مرتين أو ثلاثاً فأنكر الصحابة ذلك عليه مرتين:

فقال عمر لأصحاب رسول الله ﷺ ما يقول؟

قالوا: يا أمير المؤمنين: يزعم أن الله لا يضل أحداً. فقال عمر: كذبت بل الله خلقك، والله أضلك، ثم يميتك فيدخلك النار إن شاء الله، أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك، وتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بَسْرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع المهاجرين الأولين، فدعاهم، فاستشارهم، فأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا في الأمر، فقال بعضهم: خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه.

وقال آخرون: إن معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ لا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

فقال عمر: ارفعوا عني.

ثم قال: ادع الأنصار فدعوا - فدعوهم - له، فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين فاختلفوا كاختلافهم.

فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح

فدعوا له فاستشارهم، فلم يختلف عليه منهم رجلان قالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فأذن عمر بالناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله؟ قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة: نعم نفر من قدر الله عز وجل إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها وادياً له عدوتان " أحداهما " خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول:﴿إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه﴾، قال: فحمد الله ثم انصرف.

وقال أبو عثمان النهدي سمعت عمر بن الخطاب - وهو يطوف بالبيت - يقول: اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فاثبتني فيها، وإن كنت كتبتني على الشقوة فامحني منها، واثبتني في السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب.

3 – علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خطب علي بن أبي طالب فقال: ما يمنعه أن يقوم - فيخضب هذه من هذا. قالوا: يا أمير المؤمنين، أما إذ عرفته فأرنا نبير عترته فقال: أنشد الله رجلاً قتل لي غير قاتلي.

قالوا: فأوصنا قال: أكلكم إلى ما وكلكم الله ورسوله إليه. قالوا: فما تقول لربك إذا قدمت عليه؟ قال: أقول كنت عليهم شهيداً

مادمت فيهم حتى توفيتني وهم عبادك إن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم.

وقال: إن أحدكم لن يخلص الإيمان إلى قلبه حتى يستيقن يقيناً غير ظن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ويقر بالقدر كله. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن القدر لا يرد القضاء، ولكن الدعاء يرد القضاء، قال الله لقوم يونس:{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ } [يونس: ٩٨].

4 – عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال: لا والله لا يطعم رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر ويقر، ويعلم أنه ميت، وأنه مبعوث من بعد الموت.

وقال رضي الله عنه: أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، فاتبعوا ولا تبتدعوا، فإن الشقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره.

5 – عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: عن ابن طاووس عن أبيه قال: أشهد لسمعت ابن عباس يقول: العجز والكيس بقدر، قال ابن عباس: إن الله عز وجل كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً، فخلق القلم، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه، وقال ابن عباس: القدر نظام التوحيد فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضاً للتوحيد، ومن وحد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقى لا

انفصام لها.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: يا أبا العباس، أرأيت من صدني عن الهدى وأوردني الضلالة والردى ألا تراه قد ظلمني؟ قال: إن الهدى إن كان شيئاً لك عنده فمنعكاه فقد ظلمك، وإن كان هو له يؤتيه من يشاء فلم يظلمك. قم لا تجالسني.

وعن ابن عباس قال: كان الهدهد يدل سليمان على الماء، وقلت له: كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ عليه التراب؟ فقال: أعضك الله بهن أبيك، ألم يكن إذا جاء القضاء ذهب البصر.

6 - **عبد الله بن عمر رضي الله عنهما**: عن يحي بن يعمر قال: قلت لابن عمر: إنا نسافر فنلقي قوماً يقولون: لا قدر، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أن ابن عمر منهم بريء، وهم منه براء - ثلاث مرات.

7 - **أبي بن كعب رضي الله عنه**: عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت: يا أبا المنذر فإنه وقع في قلبي شيء من هذا القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه عني، فقال: إن الله عز وجل لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإن مت على غير ذلك دخلت النار. قال: ثم أتيت ابن مسعود فحدثني بمثل ذلك ثم أتيت ابن ثابت فحدثني بمثل ذلك عن النبي

ﷺ.

8 - عبادة بن الصامت رضي الله عنه: عن عبادة قال له ابنه عبد الرحمن: يا عبادة أوصني، قال: أجلسوني، فأجلسوه، ثم قال: يا بني، اتق الله ولن تتق الله حتى تؤمن بالقدر، ولن تؤمن بالقدر حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

9 - الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: قال الحسن بن علي: قضي القضاء وجف القلم وأمور بقضاء في كتاب قد خلا.

10- عمرو بن العاص رضي الله عنه: قال عمرو بن العاص: انتهى عجبي إلى ثلاث: المرء يفر من القدر وهو لاقيه، ويرى في عين أخيه القذا فيعيبها ويكون في عينه مثل الجذع فلا يعيبها، ويكون في دابته " الصعر " ويقومها جهده ويكون في نفسه الصعر، فلا يقومها.

11 - أبو الدرداء رضي الله عنه: قال أبو الدرداء: ذروة الإيمان أربع: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب.

ولابد هنا من البيان أن تقسيم القدر إلى خير وشر، إنما هو بإضافته إلى الناس والمخلوقات، أما بالنسبة لله عز وجل، فالقدر كله خير، وحكمة، وعدل، ورحمة من الله سبحانه الذي قضى بتقدير المصائب والبلايا، وكل ما يكرهه الإنسان لحكم كثيرة من أبرزها:

- الابتلاء لعباده: واختبارهم وتمحيص الإيمان في قلوبهم وزيادة درجاتهم وثوابهم إذا صبروا، قال تعالى:{وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥]، والمقصود بالفتنة هنا الاختبار وقال سبحانه:{أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣} [العنكبوت: ٢-٣].

- التربية والتأديب: والجزاء المعجل لكي يثوب الإنسان إلى رشده، ويرجع عن خطئه، قال تعالى:{فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٤} [النحل: ٣٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :**《إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة》**.

ما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينه، وإن يسوؤه فهو نعمة، لأنه يكفر خطاياه، ويثاب عليه بالصبر، ومن جهة إن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها العبد، قال تعالى:{وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ} [البقرة: ٢١٦]. وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى صبر. والمقصود أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وفي بيان قوله تعالى:{مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [النساء: ٧٩]. نلاحظ: فرّق سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب، فجعل هذه

من الله، وهذه من نفس الإنسان؛ لأن الحسنة مضافة إلى الله؛ إذ هو أحسن بها من كل وجه.. أما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وخير.



المبحث الثاني

مراتب القدر على أربع مراتب

المبحث الثاني: مراتب القدر

أولا: مرتبة العلم:

الإيمان بعلم الله عز و جل المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، فعلم ما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عالمون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ومن قبل أن يخلق الجنة والنار، علم دق ذلك وجليله، وكثيره وقليله، وظاهره وباطنه، وسره وعلانيته، ومبدأه ومنتاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب.

والأدلة من القرآن الكريم كثيرة منها:

1 – قوله تعالى:{ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ } [الأنعام: ٥٩].

ومفاتح الغيب فسرها رسول الله ﷺ بأنها خمس لا يعلمها إلا الله وهي المذكورة في قوله تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤ } [لقمان: ٣٤].

والآية دلت على أن الله - سبحانه وتعالى - محيط علمه بجميع الموجودات بريها وبحريها، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، فهو يعلم حركة الجمادات، ومن باب أولى غيرها من الحيوانات وبني الإنسان

المكلفين، وقد أحاط علمه - سبحانه وتعالى - بكل حبة كائنة في ظلمات الأرض من الأمكنة المظلمة أو النبات الذي في بطن الأرض قبل أن يظهر.

2 - وقوله تعالى:{هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ} [الحشر: ٢٢] أي: السر والعلانية، أو الدنيا والآخرة، أو المعدوم والموجود.

3 - وقال تعالى:{لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا } [الطلاق: ١٢]، فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان، فإحاطته سبحانه بكل شيء علماً يدل على ثبوت صفة العلم لله المتصف به أزلاً والشامل لكل شيء.

4 - وقال تعالى:{ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾} [طه: ٩٨].

فبعد أن أحرق موسى - عليه السلام - العجل، ونسفه في البحر، فبطل أن يكون إلهاً كما زعموا، فلما فعل ذلك وتبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وهو الله سبحانه وتعالى، المتوحد بالألوهية، والذي قد أحاط علمه بجميع الأشياء.

5 - وقال تعالى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾} [البقرة: ٢١٦]. فعواقب الأمور لا يعلمها إلا الله.

6 - وقال تعالى: مجيباً الملائكة - بعد إخبارهم أنه جاعل في الأرض خليفة واستفهامهم - قال تعالى:{إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٣٠] أي: أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء، ورسل، وقوم صالحون، وساكنو الجنة، فعلمه محيط بكل شيء.

7 – وقال تعالى:{عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ } [سبأ: ٣].

الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت؟ وأين تفرقت؟ ثم يُعيدُهَا كما بدأها أوّل مرّة فإنه بكل شيء عليم.

8 – وقال تعالى:{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ } [النجم: ٣٢]. أي: هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صُلبه أمثال الذرّ، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير، وكذا قوله:{وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ} [النجم: ٣٢] قد كتب الملك الذي يُوَكّلُ به: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد.

9 – وقال تعالى:{أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ} [العنكبوت: ١٠]. أي: أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟

10 – وقال تعالى:{وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا} [الجن: ٢٨].

– أدلة هذه المرتبة من السنة:

1 – عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال:《الله أعلم بما كانوا عاملين》.

2 – وعن أبي هريرة رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ :《ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها》، قالوا: يا رسول: أفرأيت من

يموت وهو صغير؟ قال:《الله أعلم بما كانوا عاملين》. والشاهد قوله:《الله أعلم بما كانوا عاملين》 بالنسبة لأولاد المشركين والمسلمين، ومعنى ذلك أنهم لو عاشوا فإن الله عالم بأعمالهم خيرها وشرها، فالله يعلم ما كان، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

3 – وعن علي – رضي الله عنه – قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً، وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال:《ما منكم من نفس إلا وقد عُلم منزلها من الجنة والنار》. قالوا: يا رسول الله، فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال:《لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له》 ثم قرأ:{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾} [الليل: ٥ - ١٠]، والشاهد قوله:《ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار》 فالله علم أهل الجنة وأهل النار بعلمه القديم، فالحديث يدل على ثبوت العلم الكامل لله تعالى.

4 – وعن عائشة أم المؤمنين أن نبي الله ﷺ قال:《اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم》.

5 – وقال ﷺ :《بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم》، فاسم الله (العليم) يقتضي أنه سبحانه عالم بأرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم والشقي منهم والسعيد قبل أن يخلقهم.



ثانيا: مرتبة الكتابة:

وهي أن الله تعالى - كتب مقادير المخلوقات، والمقصود بهذه الكتابة: الكتابة في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي لم يفرط فيه الله من شيء، فكل ما جرى ويجري فهو مكتوب عند الله وأدلة هذه المرتبة كثيرة نذكر منها:

1 – قوله تعالى: {مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]، على أحد الوجهين، وهو أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث، فكل ما يجري مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ.

2 – وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾} [الأنبياء: ١٠٥]. فأخبر - تعالى - أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة. والآية دالة على مرتبة الكتابة عند من فسر الزبور بالكتب بعد الذكر، والذكر أمُّ الكتاب عند الله، وهو اللوح المحفوظ.

3 – وقال تعالى في قصة أسرى بدر: { لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾} [الأنفال: ٦٨]، أي: لولا كتاب سبق به القضاء عند الله أنه قد أحل لكم الغنائم وأن الله رفع عن أمة محمد ﷺ لمسكم العذاب، فالآية دليل على الكتاب السابق.

4 – وقال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾} [الحج: ٧٠]. وهذه الآية من أوضح الأدلة الدالة، على علمه المحيط بكل شيء، وأنه علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، فالآية جمعت بين

المرتبتين.

5 – وقال تعالى:{وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾} [النمل: ٧٥]، أي: خفية أو سر من أسرار العالم العلوي والسفلي، إلا في كتاب مبين، قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جلي أو خفي، إلا هو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ، فالآية دليل على الكتابة السابقة لكل ما سيقع.

6 – وقال تعالى في آية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة:{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾} [يونس: ٦١]،{وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ } أي: ما يغيب عن علمه وبصره وسمعه ومشاهدته أي شيء، حتى مثاقيل الذر، بل هو ما أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله:{إِلَّا فِي كِتَٰبٍ}: مرتبة الكتابة، وكثيراً ما يقرن الله - سبحانه وتعالى - بين هاتين المرتبتين.

7 – قال تعالى:{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ } [يس: ١٢]، أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هَهُنا: هو أم الكتاب.

8 – وقال تعالى:{ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾} [القمر: ٥٢ - ٥٣]، أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام{ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ} أي: من أعمالهم {مُّسْتَطَرٌ} أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

9 - وقـــال تعـــالى عـن موسـى حـين قـال لـه فرعـون:{قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾} [طه: ٥١ - ٥٢].

إن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدّر وهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عَملهمُ عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال{لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} أي: لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدّس وتنزه، فإن علم المخلوقات يعتريه نقصانان، أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

10 - وقال تعالى:{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١].

- الأدلة من السنة:

1 - قال عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - سمعت رسول الله ﷺ يقول:《كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء》، فالدليل من الحديث قوله:《كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض》، فالمراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره، لا أصل التقدير فإن ذلك أزلي لا أول له وقوله:{عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ} [هود: ٧] أي:

قبل خلق السماوات والأرض.

2 - وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه: ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ :﴿يا غلام إنّي معلمك كلمات ينفعك الله بهنّ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أنّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف﴾.

3 - ومن الأحاديث المشهورة حديث:﴿أول ما خلق الله القلم﴾ وفيه:﴿أن الله أمره بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة﴾، فعن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:﴿إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة﴾، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول:﴿من مات على غير هذا فليس مني﴾، فالرواية فيها دليل على مرتبة الكتابة حيث أمر الله القلم بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة.



ثالثاً: مرتبة الإرادة والمشيئة:

إن كل ما يجري في هذا الكون فهو بمشيئة الله، سبحانه وتعالى، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته الكونية شيء.

ومن الأدلة في القرآن الكريم:

1 – قال تعالى: {إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].

أي: إنما يأمر بالشيء، أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار

إذا ما أراد الله أمراً فإنما ::: يقول له " كن " قولة فيكون

2 - وقد ورد في القرآن الكريم - في الحديث عن بعض الأنبياء وغيرهم - تعليقهم كل أمر بمشيئة الله - سبحانه وتعالى -.

أ – فنوح عليه الصلاة والسلام، لما قال له قومه: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾} [هود: ٣٢ - ٣٣].

ب – وشعيب عليه السلام - بعد - ما طلب منه قومه أن يعود إلى ملتهم بين أنه لا يمكن أن يعود إلى ملتهم بعد أن نجاه الله منها هو والمؤمنون معه، ولا ينبغي لهم ذلك إلا إذا شاء الله ذلك فقال: { قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا} [الأعراف: ٨٩]، فعلق أعظم شيء وهو الإيمان والكفر على مشيئة الله.

جـ – ويوسف عليه السلام، قال لأهله بعد أن التقى بهم: {ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ} [يوسف: ٩٩].

س – وقال موسى عليه السلام - للعبد الصالح{قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾} [الكهف: ٦٩].

ك – والله سبحانه وتعالى وجه نبيه قائلاً:{ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

فهذه الآيات تدل على استقرار عقيدة المسلمين ويقينهم بهذه المرتبة من مراتب القدر.

3 – قال تعالى:{ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾} [آل عمران: ٢٦]، أي: أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم يشأ لم يكن.

4 – قال تعالى:{ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾} [آل عمران: ٦]، أي وهو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء ذكوراً وإناثاً، أشقياء وسعداء مختلفين في صفاتهم وأشكالهم، حسناً وقبحاً.

5 – قال تعالى:{فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ } [الأنعام: ١٢٥]، أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، ويوسع قلبه للتوحيد والإيمان به{وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ} أي: يجعل صدره ضيقاً، لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه.

6 – وقال تعالى:{ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾} [السجدة: ١٣].

7 – وقال تعالى:{وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ} [الأنعام: ٣٥].

8 – وقال تعالى:{وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ} [هود: ١١٨].

9 – قوله تعالى - في معرض الحديث عن أهل الكتاب، ونهي النبي ﷺ على أن يتبع أهواءهم، وأمره أن يلتزم الحكم بما أنزل الله، مبيناً أن لكل من الأمم الثلاثة: اليهود والنصارى، وأمة محمد، شريعة ومنهاجاً في كل من التوراة والإنجيل والقرآن، " وقد نسخ القرآن ما قبله " قال بعد ذلك:{وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ} [المائدة: ٤٨]، أي: لجعلكم على شريعة واحدة، وكتاب واحد، ورسول واحد، لكن لما لم يشأ الله ذلك، بل شاء الابتلاء والاختبار، فكنتم على الحالة التي أنتم عليها، فمشيئة الله مطلقة، والنافذ هو ما يشاؤه - سبحانه وتعالى - فهذا دليل على مرتبة المشيئة.

– أدلة هذه المرتبة من السنة:

1 – عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال:﴿اشفعوا تؤجروا﴾، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء. فأوصى بالشفاعة وذلك فيما ليس بمجرم وضابطها: ما أذن في الشرع دون ما لم يأذن فيه، ثم بين أن الله يقضي على لسان رسوله ما شاء، أي: يظهر على لسان رسوله بالوحي أو الإلهام ما قدره في علمه بأنه سيقع، فهذا يدل على مرتبة المشيئة.

2 – قال رسول الله ﷺ:﴿من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله﴾، فقوله: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، فيه إثبات

مرتبة الإرادة، وأن الأمور كلها تجري بمشيئة الله تعالى - ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : وإنما أنا قاسم والله يعطي، أي: إنما اقسم ما أمرني الله بقسمته، والمعطي حقيقة هو الله - تعالى - فالأمور كلها بتقدير الله تعالى، والإنسان مصرف مربوب، ومن الأحاديث الدالة على الإرادة حديث حذيفة بن أسيد الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إن ملكاً موكلاً بالرحم، إذا اراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله لبضع وأربعين ليلة...) الحديث. فالله هو المريد الخلق الآدمي، والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جداً.

3 – وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :(أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده) والحديث واضح الدلالة على إثبات مرتبة المشيئة، وأن الله تعالى له المشيئة المطلقة، وأن للعباد مشيئة خاضعة لمشيئة الله - تعالى -، والنهي في الحديث إنما هو عن قرن مشيئة الله بمشيئة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث عطفها بالواو والتي هي لمطلق الجميع من غير ترتيب ولا تعقيب، والرسول مثل غيره من العباد، فالكل خاضعون لمشيئة الله، ومشيئتهم تابعة لمشيئة الله.

4 – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت ، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته أنه يفعل ما يشاء لا مكره له).

ففيه إثبات المشيئة لله - تعالى - فهو الغفور الرحيم، والرازق إذا

شاء، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، لا مكره له، والحديث فيه الحث على العزم في المسألة والجزم فيها، دون ضعف أو تعليق على المشيئة، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة؛ لأنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه إلى الإكراه، والله - سبحانه وتعالى - لا مكره له، كما نص عليه الرسول صلى الله عليه وسلم هنا.

5 - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء)، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك). والشاهد قوله:(كقلب واحد يصرفه حيث يشاء)، ومعناه أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده كلهم، فيهدي ويضل كما يشاء، ففيه دلالة على مرتبة المشيئة.

6 - وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حين أجابه بعد سؤاله له هو وفاطمة بقوله:(ألا تصليان؟) فأجابه بقوله: أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، قال علي: فانصرف حين قلت له ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه وهو يقول:{وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا} [الكهف: ٥٤].

ففي هذا الحديث إثبات لمشيئة الله - تعالى - وأن العبد لا يفعل شيئاً إلا بإرادة الله، وأما انصراف النبي صلى الله عليه وسلم وضربه فخذه، واستشهاده بالآية، فمعناه: أنه تعجب من سرعة من جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، ولهذا ضرب فخذه.

7 - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع

يقول:(ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شئ بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

وهذا تحقيق لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقاً وقدراً، وبداية وهداية هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولتوحيد الإلهية شرعاً وأمراً ونهياً. وفي هذا الحديث: التفويض إلى الله تعالى والإذعان له والاعتراف بوحدانيته والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأن الخير والشر منه والحث على الزهادة في الدنيا والإقبال على الأعمال الصالحة.

8 – وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان).

ففي الحديث حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان بمقادير الله وبمشيئة الله وإرجاع ما يقع للعبد إلى مشيئة الله:(وما شاء فعل) فيه إثبات المشيئة لله تعالى.

9 – وعن ابن عباس رضي الله نهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابي يعوده فقال:(لا بأس عليك طهور إن شاء الله) قال الأعرابي: طهور، بل هي حمى تفور على شيخ كبير، تُزيره القبور، قال النبي صلى الله عليه وسلم :(فنعم إذاً).

وهذا الحديث استدل به البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد علي إثبات مشيئة الله عز وجل، كما هو واضح في تخريج الحديث، حيث

بوّب له باب: في المشيئة والإرادة.

والشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم :(إن شاء الله). فجعل كون هذا المرض الذي أصيب به المريض طهوراً من ذنوبه، ومكفراً لها مقيداً بمشيئة الله تعالى وفوض ذلك، فإن شاء الله تعالى جعله كفارة وطهوراً فهو يفعل ما يشاء، وهو على كل شئ قدير.

10 - وفيها يقال عند دخول القبور ما ورد عن عائشة أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيسلم ويقول:(السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد).

والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جداً.



رابعاً: مرتبة الخلق:

وهو الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، فهو خالق كل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وما من ذرّة في السماوات وفي الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها وخالق حركتها وسكونها، سبحانه لا خالق غيره ولا ربّ سواه.

ومن الأدلة من القرآن:

1 – قال تعالى:{ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات: ٩٥ - ٩٦]. أي: خلقكم وعملكم، فتكون ما مصدرية، وقيل: إنها بمعنى الذي، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم وهو الأصنام.

وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: وكلا القولين متلازم والأول أظهر، وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخاري في خلق أفعال العباد عن حذيفة - رضي الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إن الله يصنع كل صانع وصنعته) وتلا بعضهم عند ذلك:{ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾} [الصافات: ٩٦] فأخبر الصناعات وأهلها مخلوقة، فالله - تعالى - خالق الخلق وأفعالهم كما دلت على ذلك، الآية والحديث.

2 – قال تعالى:{ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: ١٦]، وفي آية أخرى: {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [غافر: ٦٢].

وهذه نصوص واضحة في الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى في معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه - سبحانه وتعالى - فنفى ذلك سبحانه آمراً رسوله أن يقرر هذه الحقيقة التي تفصل في الأمر، وتدل على وحدانية الله - تعالى - وانفراده

بالخلق والرزق{قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ} [الرعد: ١٦]، وفي موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله - تعالى - وكماله ودلائل وحدانيته{ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢} [الزمر: ٦٢]، أما الآية الثانية فقد جاءت أيضاً لبيان قدرة الله التامة، حيث جعل لعباده الليل والنهار ثم بين سبحانه أنه خالق كل شيء.

3 – وقال تعالى: ممتناً على الصحابة - رضوان الله عليهم - بعد أن أمرهم بالتثبت في خبر الفاسق قال تعالى:{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧} [الحجرات: ٧].

والشاهد قوله:{وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ} [الحجرات: ٧] فهو سبحانه هو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروهاً عندكم وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل في كل ذلك هو الله - تعالى.

وهناك آيات كثيرة تدل على أن الله - تعالى - هو المضل والهادي، والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم وأنه المضحك والمبكي، والمميت والمحيي، وكل ذلك دليل مرتبة الخلق.

وقد أورد الحافظ ابن كثير هذا الدعاء في تفسيره آية الحجرات السابقة{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ} [الحجرات: ٧] قال: لمّا كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال صلى الله عليه وسلم :(استووا حتى أثنى على ربِّ) فصاروا خلفه صُفُوفاً: فقال النبي صلى الله عليه وسلم :(اللهم لك

الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هـــادي لمـــا أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيـــت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتـــك وفضلك ورزقك اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكـــره إلينـــا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحيينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الـــذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق). فترى في هذا الحديث الإقرار بأن الله - تعالى - هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق.

- أدلة هذه المرتبة من السنة:

1 - عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان يقول:(اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها).

الشاهد قوله:(اللهم آت نفسي تقواها وزكاها..)، فالفاعل هو الله - تعالى - فهو الذي يطلب منه ذلك، ولفظ " خير " ليس للتفضيل، بل لا مزكي للنفس إلا الله، ولهذا قال بعد ذلك:(أنت وليها ومولاهـــا)، فهو سبحانه الملهم للنفس الخير والشر.

قال تعالى:{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾} [الشمس: ٨].

قال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: ٨] أي: فالخلق لله والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه، وقال ابن زيد في معنى الآية: جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها بالفجور.

2 – وعن البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

والله لـــولا الله مـــا اهتـــدينا	::	ولا صـــــمنا ولا صـــــلينا
فـــأنزلن ســـكينة علينـــا	:	وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
والمشـــركون قـــد بَغَـــوْا علينـــا	:::	إذا أرادوا فتنـــــة أبينـــــا

وفي رواية أخرى للبخاري:(ولا تصدقنا ولا صلينا)، بدل: (ولا صمنا ولا صلينا)، وبهذه الرواية يستقيم الوزن، قال ابن حجر: وهو المحفوظ. ودليل هذه المرتبة قوله: لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فإنها دليل على أن الله هو خالق العباد وأفعالهم ومنها: الهداية، والصدقة، والصلاة.

3 – وعن ورّاد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: أكتب إليّ ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة، فأملى عليّ المغيرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة:(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

الشاهد قوله:(اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت) فالمعطي والمانع هو الله - تعالى -، فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله - سبحانه وتعالى -.

وقوله:(ولا ينفع ذا الجد منك الجد) أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح.

4 - وقد قال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -:(يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟)، فقلت: بلى يا رسول الله، قال:(قل: لا حول ولا قوة إلا بالله).

والشاهد قوله:(لا حول ولا قوة إلا بالله)، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، فمعناها: لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته، وحُكِيَ هذا عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وكله متقارب، والكنز هنا: معناه ثواب مُدَّخر في الجنة عند الله وهو ثواب نفيس.

5 - وعن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال:(وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين).

ففي الحديث: دلالة على أن الله فطر السماوات والأرض أي: خلقهن وأبدعهن وأتقن صنعهن وأوجدهن من العدم على غير مثال سابق، فخلقه سبحانه لهذا الكون من أرض وسموات وما فيهن من رطب ويابس ومخلوقات عجيبة أكبر دليل على هذه المرتبة وأن الله يخلق الخلق بقدرته على ما اقتضاه علمه السابق ومشيئته النافذة.

6 - قال صلى الله عليه وسلم:(سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما أستطعت أعوذ بـــك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومـــه قبـــل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة).

والحديث يدل على شيء مما خلق الله تعالى وهو خلق الإنسان وما احتواه هذا المخلوق من أعضاء وأجهزة يعجز الإتيان بمثلها إلا من هو خالق كل شيء سبحانه، فالناظر في نفسه ودقة تكوينها وعجيب خلقتها يؤمن بأن الله خالق كل شيء، فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده والاعتراف بأنه خالقه، العالم به إذ انشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه.



المبحث الثالث

التقادير الخمس وأنواع الإرادة

المبحث الثالث: التقادير الخمس وأنواع الإرادة

أولا: التقادير الخمس:

إن الإيمان بكتابة المقادير يدخل فيه خمسة تقادير

1- التقدير الأزلي: وهو قبل خلق السماوات والأرض عندما خلق الله تعالى القلم.

- قال تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا} [التوبة: ٥١].

- وقال تعالى: {مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾} [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

- وقال تعالى: {وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾} [النمل: ٧٥].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشُهُ على الماء.

2 - تقدير يوم الميثاق:

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾} [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

وهو ميثاق الفطرة الأول، وفيه أخذ الله تعالى من ظهر آدم ذريته، وهم كأمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم وقال لهم{أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ

شَهِدۡنَآ} [الأعراف: ١٧٢] فجبلهم على حبه وتوحيده وتعظيمه، وأقرهم على ذلك بالقوة فصارت النفوس تقر بخالقها، وتميل إلى توحيده وبقيت تلك الفطرة في قلوبهم حجة عليهم.

إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ويؤيد ذلك قوله تعالى:{فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ} [الروم: ٣٠].

ثم جعلهم بعلمه وحكمته فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير. قال صلى الله عليه وسلم :(إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي. قال: فقال قائل: يا رسول الله، فعلام ماذا نعمل؟ قال: على موقع القدر).

3 - **التقدير العمري**: عند تخليق النطفة في الرحم، فيكتب إذ ذاك ذكوريتها وأنوثتها والأجل والعمل، والشقاوة والسعادة وجميع ما هو لاق فلا يزاد فيه ولا ينقص منه.

- قال الله تبارك وتعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا} [الحج: ٥].

- وقال تعالى:{وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾} [فاطر: ١١].

- وقال تعالى:{هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم

مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾} [غافر: ٦٧].

- وقال تبارك وتعالى:{إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ} [النجم: ٣٢] وغيرها من الآيات.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال:(إن أحدكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يُرْسَلُ الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌ أو سعيدٌ، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وفي رواية أخرى: إذا أمر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص).

4 - التقدير الحولي:

وهو في ليلة القدر: قال تعالى:{إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾} [الدخان: ٣ - ٥].

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال:

يحج فلان وفلان.

ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة، فيقضي أمر السنة كلها من معايش الناس ومصائبهم وموتهم وحياتهم إلى مثلها من السنة الأخرى.

5 - **التقدير اليومي**: هو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق.

- قال تعالى:{يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾} [الرحمن: ٢٩].

روى ابن جرير بسند حسن عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية:{كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩] فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال صلى الله عليه وسلم :(أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كربا، ويرفع قوماً، ويضع آخرين).

قال سبحانه:{ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾} [آل عمران: ٢٦].

وقال البغوي في تفسيره{كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩]: من شأنه أن يحي ويميت، ويخلق ويرزق، ويُعز قوما ويذل قوماً، ويشفي مريضاً، ويفك عانيا، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنبا إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء.

وجملة القول في ذلك أمن التقدير اليومي هو تأويل المقدور على

العبد وإنفاذه فيه، في الوقت الذي سبق أن يناله فيه، لا يتقدمه ولا يتأخره.

ثم هذا التقدير اليومي تفصيل من تقدير الحولي، والحولي تفصيل من التقدير العمري عند تخليق النطفة، والعمري تفصيل من التخليق العمري الأول يوم الميثاق، وهو تفصيل من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين والإمام المبين هو من علم الله عز وجل، وكذلك منتهى المقادير في آخريتها إلى علم الله، فانتهت الأوائل إلى أوليته، وانتهت الأواخر إلى آخريته{ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾} [النجم: ٤٢].



ثانياً: أنواع الإرادة:

تنقسم الإرادة في كتاب الله إلى إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية شرعية.

1 - الإرادة الكونية:

هي المشيئة العامة التي يدخل فيها جميع المخلوقات من بر وفاجر وصالح وطالح، وهي إرادة الله تعالى لفعله، سواء إن كان المفعول منه محبوباً أو غير محبوب، يرضيه أم لا يرضيه، فالله تعالى يفعل ما يشاء، ولا يشاء شيئاً إلا بعد إرادته له، وكل ما كان منه فليس فيه إلا الجمال والجلال والحسن، أما أفعال العباد فهي منقسمة، ففيها الحسن وفيها القبيح، وليس للعباد أن يفعلوا ما يشاؤون، وإنما يفعلون ما يؤمرون به إمتثالاً وإنتهاءً، وهذا هو الحسن منهم، وتلك الإرادة متعلقة بالخلق، وهي من لوازم الربوبية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويدخل في هذه المشيئة خلق الأقوياء والضعفاء والفقراء والمؤمنين الكفار، والملائكة والشياطين، وخلق الخيرات والفضائل، وخلق السيئات والحسنات، وخلق التوفيق والخذلان، وخلق القوة والعجز، والبلادة والذكاء. وهذه بعض الآيات تدل على الإرادة الكونية.

- قال تعالى:{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} [الأنعام: ١١٢].

- قال تعالى:{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: ٢٥٣].

- وقال:{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس: ٩٩].

- وقال تعالى:{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ} [النساء: ٩٠].

- وقال تعالى:{فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ} [الأنعام: ١٢٥].

– وقال تعالى:{وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ} [هود: ٣٤].

– وقال تعالى:{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: ٢٥٣].

– وقال تعالى:{ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ } [الكهف: ٣٩].

– وقال تعالى:{ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا } [السجدة: ١٣].

– وقال تعالى:{وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠].

– وقال تعالى:{مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩].

– وقال تعالى:{إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾} [يس: ٨٢].

وهذه الإرادة وتلك المشيئة هي التي تستلزم وقوع المراد، والمراد إما أن يكون مراداً لذاته محبوباً لله تعالى، وذلك لما فيه من الخير، كخلق الأنبياء والصالحين وكذلك كافة الفضائل والخيرات، أو مراداً لغيره وهذا يطلق على الكفر وجميع الشرور والآثام، فإنها ليست مرادة لذاتها وإنما هي مرادة لشيء آخر محبوب إلى الله تعالى.

قال تعالى:{ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾} [الروم: ٤١].

وهذا دليل على إثبات الحكمة في جميع أفعال الله تعالى وأحكامه، والحق أن جميع أفعاله وشرعه لها حكم وغايات، لأجلها شرع وفعل، وإن لم يعملها الخلق على التفعيل، فلا يلزم من عدم علمهم بها انتفاؤها في نفسها

وحاصل الإرادة الكونية إثبات مشيئة الله تعالى المطلقة في إيجاد المخلوقات كلها واختلاف أنواعها وأشكالها، وتفاوت فضائلها وشرورها وجمالها ودمامتها وكيسها وعجزها، وكفرها وإيمانها، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالله على كل شيء قدير، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، ولا يقع فيه شيء كرهاً عنه، قال تعالى:{وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾} [الزمر: ٣٦ - ٣٧]. فهو الذي أراد إيمان المؤمنين، وهو الذي أراد كفر الكافرين، وكل ذلك في علمه السابق، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن علمه، وعلمه يستلزم ثبوت قدرته، وإذا كان قد علم أن أبا لهب سيكفر، فهذا معناه أنه لن يستطيع أن يخرج عن علمه ويؤمن، وهذا دليل أن الله تعالى سيحول بقدرته بينه وبين الإيمان، فلن يقدر عليه، ولن يقدر أبو لهب على خلاف ذلك، قال تعالى:{وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤].

وهذا ليس من باب تكليف ما لا يطاق، وإنما هذا من باب العقوبة: وهي نوع من الخذلان لمن زاغ عن صراط الله المستقيم، وأما طاقة

الأسباب فهي مقدورة له، ولكن الله تعالى لم يوفقه ولم يقدره على بلوغ غاياتها، فما آمن من آمن إلا بفضل الله تعالى ورحمته، وما كفر من كفر كرهاً عنه إنما كان ذلك بخذلان الله تعالى له:{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس: ٩٩]، وهو سبحانه وتعالى خالق الخير، كما هو خالق الشر، لا إله غيره ولا ربَّ سواه، قال تعالى:{ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى:{هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة: ٢٩]. وفي الإرادة الكونية قد يبغض الله تعالى طاعة العاصي ولا يعينه عليها بعد الإرشاد والنصح والبيان، وذلك لحكمه عظيمة جليلة، كما قال تعالى في المنافقين الذين تخلفوا مع الخوالف في بيوتهم، وتركوا الخروج للجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم كما في غزوة تبوك:{وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ} [التوبة: ٤٦]، وقد بين الله تعالى الحكمة في بغضه لطاعته فقال:{لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾} [التوبة: ٤٧].

وهو سبحانه:{لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾} [الأنبياء: ٢٣]، وذلك لأنه يتصرف في ملكه، وهذا ليس فيه ظلم، إنما الظلم في الحقيقة يكون من تصرف المتصرف فيما لا يملك، ومنع المستحق ما يستحقه، والله تعالى لا يجب عليه شيء لأحد حتى يحاسب على ما ضيق ومنع، وعلى ما أهان وخذل، وإنما هو حكمة بالغة ورحمة واسعة وعدل قويم.

أ - كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه

وكراهته؟

فالمراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته، وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره، قد لا يكون مقصود للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فاجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاؤه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، كقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه.

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحبٌّ إليه من فوته.

ومن ذلك: أنه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاء الكثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه وجودها إليه من عدمها:

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات.

ومنـــها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل القهار، المنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع الحساب، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء، لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله:(لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ويستغفرون، فيغفر لهم).

ومنها: ظهور أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء في مواضعها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت كعبودية: الجهاد، والصبر، ومخالفة الهوى، وعبودية الاستعاذة، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

ب – هل يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

هذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

2 – الإرادة الشرعية:

هي إرادة الله تعالى لأمره الديني الشرعي، وهي التي أرسل من أجلها الرسل، وأنزل من أجلها الكتب وهي لا تستلزم وقوع المراد مع كونه محبوباً لله تعالى إلا إذا كان متعلقاً بالإرادة الكونية، والإرادة الشرعية الدينية تدل دلالة واضحة على أنه سبحانه لا يحب

الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءها خلقاً وتقديراً وإيجاداً، وأنه سبحانه وتعالى يرضى ويحب كل ما يتعلق بهذه الإرادة الدينية الشرعية ويثيب أصحابها، ويدخلهم الجنة وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وينصر بها، أي: الإرادة الدينية الشرعية للعباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين، ومن الآيات الدالة على الإرادة الشرعية:

- قوله تعالى: {يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

- وقوله تعالى: {مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ} [المائدة: ٦].

- وقوله تعالى: {وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾} [النساء: ٢٧].

- وقال تعالى: {يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾} [النساء: ٢٨].

- وقال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣].

- قال تعالى: {إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧].

3- الفرق بين الإرادتين:

أ- الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم.

ب - الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه الله، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه.

ج – فما كان بمعنى المشيئة فهو إرادة كونية، وما كان بمعنى المحبة فهو إرادة شرعية.

مثال الإرادة الشرعية قوله تعالى:{وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ } [النساء: ٢٧] لأن يريد هنا بمعنى يحب ولا تكون بمعنى المشيئة؛ لأنه لو كان المعنى: والله يشاء أن يتوب عليكم، لتاب على جميع العباد، وهذا أمر لم يكن، فإن أكثر بني آدم من الكفار، إذن يريد أن يتوب عليكم يعني يحب أن يتوب عليكم ولا يلزم من محبة الله للشيء أن يقع؛ لأن الحكمة الإلهية البالغة قد تقتضي عدم وقوعه ومثال الإرادة الكونية قوله تعالى:{إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ} [هود: ٣٤] لأن الله لا يحب أن يغوي العباد إذن لا يصح أن يكون المعنى إن كان الله يحب أن يغويكم بل المعنى إن كان الله يشاء أن يغويكم.

س – الله يريد المعاصي كوناً لا شرعاً؛ لأن الإرادة الشرعية بمعنى المحبة، والله لا يحب المعاصي، ولكن يريدها كونا، أي: مشيئة فكل ما في السماوات والأرض فهو بمشيئة الله.

4 – المخلوقات مع كل من الإرادتين: تنقسم إلى أربعة:

1 – ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمر وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

2 – ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

3 – ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من

الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

د – ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي.

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديراً ما أراد به تشريعاً، والعبد الشقي من أراد به تقديراً ما لم يرد به تشريعاً، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أن أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا:{لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ} [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى:{كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١٤٨].



ثالثاً: كلام حسن لابن القيم في الكوني والشرعي:

قال ابن القيم في شفاء العليل: الباب التاسع والعشرون: في انقسام القضاء، والحكم، والإرادة، والكتابة، والإذن، والجعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والإنشاء: إلى كوني متعلق بخلقه، وإلى ديني متعلق بأمره وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال، هذا الباب متصل بالباب الذي قبله، فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني والقدري.

أما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يُقضى ويُقدِّر ما لا يأمر به ولا شرعه، وقد يشرَّع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم، وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي إذا عرف ذلك.

فالقضاء في كتاب الله نوعان:

- كوني قدري: كقوله: { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ } [سبأ: ١٤]، وكقوله تعالى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ} [الزمر: ٧٥].

- وشرعي ديني: كقوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣]. أي:

أمر وشرع، ولو كان قضاء كونيًّا لما عبد غير الله.

والحكم أيضاً نوعان:

فالكوني: كقوله: {قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ} [الأنبياء: ١١٢]. أي: افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك.

والديني: كقوله: {ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ} [الممتحنة: ١٠]، وقال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: ١].

وقد يرد بالمعنيين معاً كقوله: {وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا} [الكهف: ٢٦]، فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي.

والإرادة نوعان:

فالكونية: كقوله تعالى: {فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦} [البروج: ١٦]، وقوله: {وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً} [الإسراء: ١٦]، وقوله: {إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ} [هود: ٣٤].

والدينية: كقوله تعالى: {يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ} [البقرة: ١٨٥]، وقوله: {وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ} [النساء: ٢٧].

فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، ولو وقعت التوبة من جميع المكلفين، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة، هل متلازمتان أم لا؟

والصواب أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعاً وديناً، وقد يأمر بما لا يريده كوناً وقدراً، كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان مراد له ديناً لا كوناً، وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كوناً وقدراً، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كوناً وقدراً، وبين هذين الأمرين وأمر

من لم يؤمن بالإيمان فرق، فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال، وأن يوطن نفسه عليه، وكذلك أمره محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بخمسين صلاة، وأما أمره من علم أنه لا يؤمن بالإيمان سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم، وحصلت من الأمر بالذبح.

وأما الكتابة:

فالكونية: كقوله:{كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ} [المجادلة: ٢١].

وقال تعالى:{وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾} [الأنبياء: ١٠٥].

- وقال تعالى:{كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾} [الحج: ٤].

والشرعية الأمرية: كقوله:{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ} [البقرة: ١٨٣].

وقوله:{ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ} [النساء: ٢٣ - ٢٤].

وقوله: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ} [المائدة: ٤٥]، فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية كتابة بمعنى الأمر.

والأمر الكوني: كقوله: {إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾} [يس: ٨٢].

وقوله: {وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾} [القمر: ٥٠].

وقوله: {وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا} [النساء: ٤٧].

وقال تعالى: {وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا} [مريم: ٢١].

وقال تعالى: {وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا} [الإسراء: ١٦]، فهذا أمر تقدير كوني، لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح.

والأمر الديني: قوله: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ} [النحل: ٩٠]، وقوله: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨]. وهو كثير.

وأما الإذن الكوني: كقوله تعالى: {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ} [البقرة: ١٠٢]، أي: بمشيئته وقدره، وأما الديني، كقوله: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ} [الحشر: ٥] أي: بأمره ورضاه.

وقوله: {قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾} [يونس: ٥٩].

وقوله: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ} [الشورى: ٢١].

وأمـــا الجعـــــل الكـــــوني: كقولـــه:{إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} [يس: ٨ - ٩].

وقوله:{وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } [يونس: ١٠٠].

وقوله:{ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا} [النحل: ٧٢] وهو كثير.

وأمـا الجعـل الـديني: كقولـه:{مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ} [المائدة: ١٠٣] أي: ما شرع ذلك ولا أمر بـه، وإلا فهو مخلـوق لـه، واقـع بقـدره ومشيئته، وأمـا قولـه:{جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ} [المائدة: ٩٧].

فهذا يتنـاول الجعلين، فإنهـا جعلهـا كذلك بقدره وشرعه ولـيس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه، بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله.

وأما الكلـمات الكونيـة: كقولـه: {كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾} [يونس: ٣٣].

وقولـــه:{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟} [الأعـراف: ١٣٧]، وقولـه صـلى الله عليـه وسـلم :(أعـوذ بكلـمات الله التامـات التـي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق). فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون، ولو كانت الكلمات الدينية التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

وأما الديني: كقولـه:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦] والمراد بـه القرآن وقولـه صـلى الله عليـه وسـلم فـي

النساء: واستحللتم فروجهن بكلمة الله، أي: إباحته ودينه، وقوله: {فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ} [النساء: ٣].

وقد اجتمع النوعان في قوله: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ} [التحريم: ١٢]. فكتبه كلماته التي يأمر بها، وينهي ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون.

وأما البعث الكوني: كقوله: {فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الإسراء: ٥]، وقوله: {فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ} [المائدة: ٣١].

وأما البعث الديني: كقوله: {هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [الجمعة: ٢]، وقوله: {كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [البقرة: ٢١٣].

وأما الإرسال الكوني: كقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾} [مريم: ٨٣]، وقوله: {وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ} [الفرقان: ٤٨].

وأما الإرسال الديني: كقوله: {هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ} [التوبة: ٣٣]، وقوله: {أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا} [المزمل: ١٥].

أما التحريم الكوني: كقوله{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ} [القصص: ١٢].

وقوله: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [المائدة: ٢٦].

وقوله: {وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [الأنبياء: ٩٥].

وأما التحريم الديني: كقوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ} [النساء: ٢٣] و{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ} [المائدة: ٣]، و{وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا

دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ} [المائدة: ٩٦]، و{وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ} [البقرة: ٢٧٥].

وأما الإيتاء الكوني: كقوله تعالى:{وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ} [البقرة: ٢٤٧]، وقوله:{قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ} [آل عمران: ٢٦].

وقال تعالى:{يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ} [البقرة: ٢٦٩]. فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمراً وديناً وتوفيقاً وإلهاماً.

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الديني منها وأعداؤه واقفون مع القدر الكوني، فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر ودين الرسل، واتباعهم دين الأمر فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره، وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره، ويقولون: نحن واقفون مع مراد الله، نعم مع مراده الكوني لا الديني، ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكوني، ولا يكون ذلكم عذراً لكم عنده؛ إذ لو عذر بذلك لم يذم أحداً من خلقه ولم يعاقبه، ولم يكن في خلقه عاصٍ ولا كافر.



المبحث الرابع

لا حول ولا قوة إلا بالله

المبحث الرابع: لا حول ولا قوة إلا بالله

أولا: لا حول ولا قوة إلا بالله:

إن كلمة الحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله) هي من الأذكار العظيمة القدر، الرفيعة المنزلة، العالية المرتبة، ولها من الفضائل والفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه ويحثهم عليها، وتأتي هذه الكلمة في الأذكار المطلقة والمقيدة في مواضع كثيرة.

أولاً: فضلها: فمما يدل على فضلها وعلو منزلتها، ومما يرغب في الإكثار من قولها باللسان وإمرارها على الجنان أمور:

1 - إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عنها بأنها كنز من كنوز الجنة:

فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :(أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم، قال: وأنا خلفه وأنا أقول: قل، لا حول ولا قوة إلا بالله).

قال النووي رحمه الله: قوله صلى الله عليه وسلم :(لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة) قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له، وأنه صانع غيره، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك شيئاً عن الأمر ومعنى الكفر هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم.

والكنز مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم.

وقول (لا حول ولا قوة إلا بالله) يوجب الإعانة ولهذا سنها النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال المؤذن:(حي على الصلاة)، فيقول المجيب:(لا حول ولا قوة إلا بالله)، فإذا قال:(حي على الفلاح)، قال المجيب:(لا حول ولا قوة إلا بالله)، وقال المؤمن لصاحبه:{ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ } [الكهف: ٣٩]، ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء فقوله:{مَا شَآءَ ٱللَّهُ}، تقديره: ما شاء الله كان فلا يأمن، بل يؤمن بالقدر ويقول لا قوة إلا بالله.

2- **ومن فضلها أن الله سبحانه يصدق قائلها** ومن صدقه الله تعالى على ما يقول فليبشر بالخير بإذن الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدقه ربه قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي لا حول ولا قوة إلا بي.

3 - **من فضلها أن من قالها حين يخرج من بيته مع البسملة والتوكل على** الله أنه يوفي ويُكفي ويُهدى، فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(**من قال إذا خرج من بيته فقال بسم الله وتوكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله فيقال له حسبك قد كفيت وهديت ووفيت فيلقى الشيطان**

شيطاناً آخر فيقول له كيف لك برجل قد كفي وهدي ووقي).

4 – ومن فضائلها أنها من الباقيات الصالحات ومن أحب الكلام إلى المولى جل جلاله قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل{وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا } [الكهف: ٤٦].

فقد ورد في تفسير هذه الآية عن جمع من الصحابة والتابعين أن الباقيات الصالحات هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسئل ابن عمر رضي الله عنهما عن الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي ذكر الله، قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله، وصلى الله على رسول الله والقيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد وأعمال الحسنات وهي الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة، وقد ورد في فضلهن أي الكلمات الباقيات الصالحات أنهن يكفرنَّ الذنوب، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:(ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرت عنه ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر).

5 – ومن فضائلها أنها غراس الجنة فقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به مر على إبراهيم عليه السلام فقال: من معك يا جبريل؟ فقال: هذا محمد، فقال له إبراهيم مُر أمتك فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، قال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثانيا: معنى لا حول ولا قوة إلا بالله:

الحول الحركة والحيلة، أي: لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل: معناه لا حول في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته وحُكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب.

وقال الإمام الطحاوي في تفسيره لمعنى (لا حول ولا قوة إلا بالله): لا حيل ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله، والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً{لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾} [الأنبياء: ٢٣].

ولا شك أن معنى لا حول ولا قوة إلا بالله أوسع وأعم مما ذُكر، فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلى حال، والقوة هي القدرة على ذلك التحول، فدلت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلى حال ولا قدرة على ذلك إلا بالله، ومن الناس من يفسر ذلك بمعنى خاص، فيقول: لا حول من معصيته إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، والذي يدل عليه اللفظ، أن الحول لا يختص بالحول عن المعصية وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول.. وكذلك لفظ القوة، قال تعالى:{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم: ٥٤].

ولفظ القوة لا يراد به ما كان في القدرة أكمل من غيره، فهو قدرة أرجع من غيرها أو القدرة التامة، ولفظ القوة قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة فلهذا كان المنفي بلفظ القوة أشمال وأكمل فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولى وهذا باب واسع.

ولكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) تأثير في دفع داء الهم والغم والحزن، بسبب ما فيها - من كمال التفويض والتبرئ من الحول والقوة إلا به، وتسليم الأمر كله له وعدم منازعته في شيء منه وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده فلا يقوم لهذه الكلمة شيء وفي الآثار أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان والله المستعان

ولا حول ولا قوة إلا بالله، دليل على إثبات القدر:

وقد ذكر الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه هذه الكلمة العظيمة في أبواب عدة من صحيحه، ومن ذلك: كتاب القدر، ومعروف أن فقه الإمام البخاري - كما يقال - في تراجمه مما يدل على أنه - رحمه الله - ما وضعها في كتاب القدر إلا لدلالتها عليه.

إن كلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) دخلت من باب القدر لكونها تدل على مرتبة من مراتبه وهي المشيئة، فقد ذكرنا أن مراتب القدر أربع مراتب ومنها: الإيمان بمشيئة الله النافذة في خلقه، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فعندما يقول العبد (لا حول ولا قوة إلا بالله)

يعتقد في قرارة نفسه أنه لا يستطيع التحول من أمر لآخر إلا إذا شاء الله له ذلك وقدره له، فلا ينصرف عن المعصية إلى الطاعة إلا بمشيئة الله تعالى، ولا ينصرف من المرض إلى الصحة إلا إذا كتب الله له الشفاء وشاء له، ولا يتحول من ضعف إلى قوة، ولا من ذلٍّ إلى عزٍ، ومن قلة إلى كثرة، ولا من جوع إلى شبع ولا من فقر إلى غنى، ولا من خوف إلى أمن، ولا من شرٍّ إلى خير إلا بمشيئة الله وإرادته، فلا يتحول ويتقلب من أي حال مهما كان إلى حال غيره إلا إذا شاء له الله ذلك، كما أنه ليس لعبد في نيل مطلوب والحصول على مرغوب أو دفع مرهوب إلا إذا أعانه الله سبحانه وأمده بقوة منه، فالعبد، بقوله لهذه الكلمة يتبرأ من حوله وقوته، ويعتقد أن الحول والقوة بالله وحده، فهو سبحانه مالك الملك وخالق، بيده أمور الخلق يتصرف بهم كيف يشاء ويصرّفهم حيث يشاء ويقلّب أحوالهم من حال إلى حال على حسب مشيئته وحكمته وإرادته لا مانع لما قضى ولا لما أعطى، ولا معطي لما منع بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

* * *

ثالثا: تضمنت لا حول ولا قوة إلا بالله معان عقدية عظيمة القدر، لمن فقهها غير دلالتها على القدر منها:

1 - أنها كلمة استعانة بالله العظيم، ومن استعان بالله جل جلاله، فالله سبحانه يعينه على قضاء حوائجه، وجميع ما يصلحه. والاستعانة بالله من أفضل العبادات وأجلّها وتعرف منزلتها وعظم شأنها من خلال سورة الفاتحة التي أمر الله سبحانه عباده أن يتعبدوه بتلاوتها يومياً مراراً، وذلك في قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝}

[الفاتحة: ٥]، فهذه الآية فيها إخلاص الاستعانة لله؛ لأنه قدم ما حقه التأخير فأفاد حصر الاستعانة بالله وكذلك لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة تحتوي على الإخلاص لله بالاستعانة فهي تدل على ما دلت عليه.

2- الإقرار بأنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، فقائلها يقر ويعتقد بأن الله وحده المدبر بهذا الكون المتصرف بحكمته ومشيئته، فلا يقع فيه شيء إلا بإذنه ومشيئته، كما أنه معترف بأن من كان هذا وصفه فهو بالطبع غني عن خلقه قائم بذاته متصف بصفات الكمال من القدرة والعظمة والقوة والعزة، ومن يعتقد هذا في خالقه كان عليه لزاماً أن يؤلهه ويعبده ويقصده ويلتجئ إليه، ولا يرجو أحداً سواه، ولا يدعو أحداً إلا هو؛ لأنه بيده التصرف التام وله الملك وهو على كل شئ قدير.

3 - التوكل على الله وتفويض الأمور إليه والاستسلام والإذعان له مع إظهار الذل والافتقار له سبحانه فهو الغني والعبد فقير إليه لا يملك من أمره شيئاً.

ويجدر التنبيه هنا على أمر يُخطئ به بعض الناس ألا وهو: استعمالهم هذه الكلمة في غير موضعها اللائق بها، ونجم ذلك عن عدم معرفة معناها ومحتواها فيجعلونها كلمة استرجاع لا كلمة استعانة بالله.



رابعاً: الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية قديم، قدم بدء الخليقة، وأول من قال به إبليس أعاذنا الله منه، فإنه بعد أن رفض أمر الله بالسجود لآدم - عليه السلام - واستحق غضب الله عليه بلعنه وطرده من رحمته وإخراجه من الجنة، لم يندم، ولم يتب، ولم يرجع على نفسه باللائمة، بل زاد عصياناً وتمرداً، بإضافة غوايته إلى الله،{قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾} [الحجر: ٣٩]. وهكذا تلقى كثير من البشر هذه الحجة الباطلة عن إبليس فغرقوا في الضلال ووقعوا في المعاصي والآثام ثم احتجوا على ذلك بالحجة الإبليسية، وقالوا: هذا شيء قدَّره الله علينا فحملوا مسئوولية خطاياهم على ربهم، وهو الذي نهاهم عن تلك المعاصي، وقد أخبر الله عن أمثال هؤلاء:

- قال تعالى:{سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١٤٨].

- وقال تعالى:{وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾} [النحل: ٣٥].

- وقال تعالى:{ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾} [الزخرف: ١٩ - ٢٠].

وقد رد الله في القرآن الكريم هذه المزاعم، ووصف أصحابها بالكذب

والتخرص، صحيح ما يجري في الكون يجري بمشيئة الله الكونية، ويقع وفقاً لإرادته، ولكن دعوى المشركين أنهم وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب تلك المشيئة الإلهية والإرادة الإلهية، باطل ومردود لما يأتي.

1- إن مشيئة الله غيب لا يعلمه أحد قبل أن يقع، فمن أين لهؤلاء المشركين أن يعلموها ويحيلون عليها شركهم وضلالهم، كما أن علم الإنسان محدود، ومن ثم لا أحد يستطيع أن يعلم ما قدره الله في المستقبل من خير أو شر إلا بعد وقوع أحدها له أو عليه، أما قبل ذلك فلا علم لأحد بما سيحصل{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [لقمان: ٣٤]. فلو كان عند المشركين من حجة مقنعة بأن الله راضٍ بذلك فليظهروها، وإلا فإن دعواهم معرفة الغيب وكشف أسراره كذب على الله، ودعوى باطلة لا برهان لهم عليها.

2- إن الله أذاق الكافرين السابقين ألوان العذاب، وأصناف العقاب جزاء على كفرهم، فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوه من جرائم وآثام وكفر وشرك لما عذبهم الله؛ لأن الله عدل لا يظلم أحدًا: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ } [فصلت: ٤٦]. وقال تعالى:{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾} [العنكبوت: ٤٠].

3- إن الله خلق البشر وفطرهم على الاستعداد للخير والشر والهدى والضلال، ومنحهم العقل لترجيح واحد من هذه على الأخرى، وبيَّن لهم الآيات الكونية الهادية إلى الحق والخير، وأرسل الرسل وأنزل الكتب والشرائع، كموازين ثابتة تعين الإنسان في اختياره، ومن ثم فلا حجة للإنسان بأن وقوعه في الضلال

وإنحرافه عن الحق لم يكن باختياره وإرادته، أو أنَّ قدر الله هو الذي أضله، قال تعالى:{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾} [الشمس: ٧ - ١٠].

وقال تعالى:{إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾} [الإنسان: ٣]، ويقول سبحانه{وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾} [البلد: ١٠]، فكل إنسان إذن مسؤول محاسب على عمله من خير وشر.

4- إنّ سلف هذه الأمة قد فهموا القدر على حقيقته، ومن ثم ردوا ما تعلل به أصحاب الأهواء والشهوات ويروى أن أحد اللصوص سرق في عهد عمر رضي الله عنه فأحضر بين يديه فسأله عمر قائلاً: لم سرقت؟ فقال: قدر الله ذلك. فقال عمر رضي الله عنه: اضربوه ثلاثين سوطاً ثم اقطعوا يده. فقيل له: ولم؟ فقال: يقطع لسرقته ويضرب لكذبه على الله، ويقول الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى، بما يكون من اكتسابات العبد، وصدورها عن تقدير منه، وخلقه لها خيرها وشرها.

5- إن هذا القول (الاحتجاج بالقدر) يلزم منه أن يستوي أولياء الله وأعداء الله، ولا يتميز الأبرار من الفجار، ولا أهل الجنة من أهل النار، فإن هؤلاء جميعاً قد كتب مقاديرهم، قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان.

- قال تعالى:{أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾} [القلم: ٣٥ - ٣٦].

- وقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾} [ص: ٢٨].

- وقال تعالى: {لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾} [الحشر: ٢٠].

وملخص القول في الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

لو كان الاحتجاج بالقدر، مقبولاً لقبل إبليس وغيره من العصاة ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب أحد من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم تقطع يد سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بالمعروف ولا نُهي عن المنكر، وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول. وأخيراً فإن المحتج بالقدر يكذب واقع دعواه، إذا أنه لا يعلل بالقدر كل أحواله، وإلا لو كان صادقاً في زعمه لرضي بكل ما يقدره الله عليه من فقر وذل وجوع وذهاب مال، والواقع يشهد بعكس ذلك ويؤكد سعيه بكل الوسائل لجمع المال ودفع المرض وإذهاب الجوع.. إلخ ولو كان المحتج بالقدر صادقاً في احتجاجه للزم أن لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون، فإن أحدهم لا يزال يذم هذا، ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه، وينكرون عليه، فإن كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم ألاَّ يذموا أحداً ولا يبغضوا أحداً، ولا يقولوا في أحد: إنه ظالم ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحد فعله، وفعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل... وأنهم كذابون مفترون في قولهم: إنَّ القدر

حجة للعبد.

- هل احتج آدم عليه السلام على الذنب بالقدر؟

ومن أشهر الأدلة التي يستدل بها المحتجون بالقدر على توسيع تفريطهم وعصيانهم حديث احتجاج آدم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - وهو ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم :(احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى ثلاثاً؟).

لقد تسرع بعض الناس فأنكروا هذا الحديث حين ظنوه سنداً للاحتجاج على الذنوب بالقدر، وتمحل آخرون تأويلات غير مقبولة، واتخذه آخرون تكأة يتوكؤون عليها، ويستندون إليها إذا وقعوا في الذنوب والآثام والديث لا مطعن في صحته، فقد رواه الشيخان عن حديث أبي هريرة، وروي في السنن بإسناد جيد، من حديث عمر رضي الله عنه والحديث يشير إلى أمور في غاية الوضوح منها:

1- إنَّ الحديث ليس فيه أن موسى لام آدم على المعصية، وإنما فيه أنه قاله:(يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة)، وظاهر هذا القول أنه لامه على الإخراج من الجنة لا على الأكل من الشجرة، فيكون اللوم على المصيبة التي حصلت بسبب المعصية، لا المعصية نفسها، والمؤمن مأمور على نزول المصائب أن يرجع إلى القدر ويحتمي به، فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور ويترك المحظور، ويسلم للمقدور، ولهذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول عند حلول ما نكره: قدر الله وما شاء فعل.

2- إنَّ موسى عليه السلام أعرف بالله سبحانه وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب قد أخبره الله أنه تاب على صاحبه، واجتباه بعده وهداه{ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾} [طه: ١٢٢]، وموسى عليه السلام ومن هو دون موسى منزلة يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة، لا يبقى وجه الملامة على الذنب، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وآدم أعلم بالله جل شأنه من أن يحتج بالقدر على الذنب، كيف وقد اعترف به واستغفر منه بقوله:{رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ } [الأعراف: ٢٣].

3- إن الاحتجاج بالقدر على المصائب جائز، وكذلك الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها جائز، وأما الاحتجاج بالقدر على المعصية تبريراً لموقف الإنسان واستمراراً فيها فغير جائز.

4- من مسائل القدر في هذا الحديث، سبق الكتاب، أي كتابة كل شيء قبل وجوده، وفيه مقارنة بين حجة آدم وحجة موسى عليهما السلام، ثم تعقيب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:(فحجّ آدم موسى، ويكررها ثلاثاً)، ولا يقول الرسول الكريم أن كلام موسى خطأ، بل يلفت النظر إلى شمول و حجة آدم عليه السلام.

- الحكمة من وجود المعاصي والكفر:

لوقوع المعاصي والكفر حكم كثيرة منها:

1- إتمام كلمة الله تعالى حيث وعد النار أن يملأها قال الله تعالى:{وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾} [هود: ١١٨ - ١١٩].

2- ظهور حكمة الله تعالى وقدرته حيث قسم العباد إلى قسمين طائع وعاصي، فإن هذا التقسيم يتبين به حكمة الله عز وجل فإن الطاعة

لها أهل هم أهلها، والمعصية لها أهل هم أهلها قال تعالى:{ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ} [الأنعام: ١٢٤].

- وقال تعالى:{وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾} [محمد: ١٧] فهؤلاء أهل الطاعة.

- وقال تعالى:{وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾} [التوبة: ١٢٥].

- وقال:{فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، وهؤلاء أهل المعصية، ويتبين بذلك قدرته بهذا التقسيم الذي لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى:{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ} [البقرة: ٢٧٢].

- وقال تعالى:{إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾} [القصص: ٥٦].

3- لجوء العبد إلى ربه بالدعاء أن يباعد بينه وبين المعصية والدعاء عبادة لله تعالى.

4- ومنها أن العبد إذا وقع في المعصية ومنَّ الله عليه بالتوبة إزداد إنابة إلى الله وانكسر قلبه وربما يكون بعد التوبة أكمل حالاً منه قبل المعصية حيث يزول عنه الغرور والعجب ويعرف شدة افتقاره إلى ربه.

5- ومنها أن يتبين للمطيع قدر نعمة الله عليه بالطاعة إذا رأى حال أهل المعصية قال تعالى:{لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾} [آل عمران: ١٦٤].

6- ومنها إقامة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه لولا المعاصي والكفر لم يكن جهاد ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلى غير ذلك من الحكم والمصالح الكثيرة ولله في خلقه شؤون.



المبحث الخامس

الهداية والإضلال

المبحث الخامس: الهدايـــة والإضـــلال

إن مسألة هداية الله تعالى للعبد وإضلاله له هي قلب أبواب القدر ومسائله؛ لأن أعظم نعمة هي نعمة الهداية، وأعظم مصيبة هي مصيبة الضلال.

أولا: مراتب الهداية:

1- **الهداية العامة**: وهي هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه، وهي أعم المراتب، وهي شاملة لجميع المخلوقات ودليلها قوله تعالى:{قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾} [طه: ٥٠].

وهذه الهداية تعم جميع المخلوقات، وتعم سائر أمور المعاش من نكاح، وطعام وشراب، وجميع السلوك التي يهدي الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخزن الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشري فيه فسبحان من خلق فسوى ثم قدر فهدى.

2- **هداية الإرشاد والدعوة والبيان**: وهي أخص من التي قبلها حيث إنها مختصة بالمكلفين من الخلق، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وهي حجة الله على خلقه، فلا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

- قال تعالى:{رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾} [النساء: ١٦٥].

- وقال تعالى:{وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾} [يونس: ٤٧].

- وقال تعالى:{وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾} [البلد: ١٠].

- وقال تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

- وقال تعالى:{كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾} [الملك: ٨-٩].

وهذه الهداية هي التي أثبتها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:{وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾} [الشورى: ٥٢].

وهي ثابتة من بعده للعلماء، والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي مرتبة عامة يشترك فيها الناس جميعاً، ولكنها لا يلزم عنها هداية التوفيق واتباع الحق، فكثير من الذين أرسل إليهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب، لم يؤمنوا وآثروا طرق الغواية{وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾} [النمل: ١٤] أي جحدوا بالآيات بعد تيقنهم من صحتها وهذا النوع من الهداية عام للمؤمن والكافر.

وحجة الله قائمة بهذه الهداية بعدة أمور وهي:

في الآيات السمعية وهي متمثلة فيما يلي:

- إرسال الرسل.

- إنزال الكتب، بما فيها من الحق والبيان.

- البيان بالآيات الكونية والنظر في الآفاق، قال تعال:{ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾} [يونس: ١٠١].

- بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطناً وظاهراً، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل أو نحو ذلك فهؤلاء

رفـع عـنهم التكليـف، ولـم يكلفهـم الله تعـالى إلا مـا فـي وسعهم ودليل هذه المرتبة من سورة يونس - عليه السلام - في قولـه تعـالى:{وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾} [يونس: ٢٥]، فاشتملت هذه الآية الكريمة على هداية البيان والإرشاد في قوله تعالى:{وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ} [يونس: ٢٥]، وعلى الهداية الخاصة وهي هداية التوفيق والإلهام في قوله تعالى:{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾} [يونس: ١٣].

- وقـال تعـالى:{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾} [يونس: ٧٤] نفـي لهداية التوفيق عنهم لظلمهم، وهذا كما في قوله تعالى:{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾} [فصلت: ١٧]. فهداهم في الهداية الأولى هداية البيان والإرشاد فأعرضوا عنها لم يقبلوها فعاقبهم الله تعالى بالضلال جزاء إعراضهم وردهم الحق.

3- **هدية التوفيق والإلهام** وخلق المشيئة المستلزمة للفعل، وهذه لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فمن شاء هدايته اهتدى، ومن شاء ضلاله ضل، وهي أخص مما قبلها إذ هي خاصة للمهتدين من المكلفين، وهي حتمية الوقوع وهي التي نفاها الله تعالى عن رسوله في قوله تعالى:{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾} [القصص: ٥٦].

وقال تعالى:{مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ } [الأنعام:

.[٣٩

- وقال تعالى:{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ } [إبراهيم: ٤].

- وقال تعالى:{أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾} [الجاثية: ٢٣].

- وقال تعالى:{ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾} [يونس: ١٩].

- وقال تعالى:{وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾} [يونس: ٢٥].

- وقال تعالى:{كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾} [يونس: ٣٣].

- وقال تعالى:{قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [يونس: ٣٥].

- وقال تعالى:{وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾} [يونس: ٤٠].

- وقال تعالى:{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾} [يونس: ٧٤].

- وقال تعالى:{رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ} [يونس: ٨٨].

- وقال تعالى:{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ

ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾} [يونس: ٩٩ - ١٠٠].

والواقع أن استقراء النصوص القرآنية يكشف أن هذه الهداية وما يقابلها من الإضلال ليستا في الإنسان ابتداء وخلقه، بل هما نتائج لمقدمات، ومسببات لأسباب، فكما جعل الله تعالى الطعام سبباً في الغذاء والماء سبباً للري، والسكين ينتج عنه القطع والنار تسبب الحريق، فكذلك جعل أسباباً توصل إلى الهداية وأسباباً تقود إلى الضلال، فالهداية إنما هي ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتاج عمل قبيح وإسناد الهداية لله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهداية وهذا المعنى واضح جداً في الآيات القرآنية مثل:

- قوله تعالى:{وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [الرعد: ٢٧].

- وقوله تعالى:{وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾} [العنكبوت: ٦٩].

- وقوله تعالى:{وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾} [محمد: ١٧].

فهداية الله للناس بمعنى لطفه بهم وتوفيقهم للعمل الصالح إنّما هي ثمرة جهاد للنفس، وإنابة إلى الله واستمساك بإرشاده ووحيه.

وفي الإضلال يقول تعالى:{يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾} [البقرة: ٢٦ - ٢٧].

- وقال تعالى:{ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾} [إبراهيم: ٢٧].

- وقال تعالى:{كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: ٣٥].

- وقال تعالى:{فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ} [الصف: ٥].

- وقال تعالى:{ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾} [المطففين: ١٤].

- وقال تعالى:{بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } [النساء: ١٥٥]. فسبب الضلال هو الزيغ، والخروج عن تعاليم الله والكبر والجبروت والتعالي على الناس بغير حجة، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ووصل ما أمر الله به أن يقطع، والإفساد في الأرض، والكفر واقتراف الآثام، فهذه من الأسباب التي أضلت الناس وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى، واستحبوا الظلام على النور، فكان أن كافأهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم، بمقتضى نظامه سبحانه في ارتباط الأسباب بمسبباتها وهذا ونحوه كثير في كتاب الله ومن ذلك:

قوله تعالى:{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾} [الأعراف: ١٧٩].

4- الهداية إلى طريق الجنة:

وهذه الهداية تكون في الآخرة بعد الحساب والجزاء ودليلها:

- قولــــه تعــــالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾} [يونس: ٩].

- وقال تعالى:{وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾} [محمد: ٤ - ٥].

وهذه الهداية حاصلة لهم بعد قتلهم، فدل على أن المراد بها هداية إلى طريق الجنة على القول الراجح.



ثانيا: أسباب الهداية كثيرة منها:

1 - المحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية:

الفطرة الإنسانية مفطورة على الإقرار بالله وإفراده بالربوبية والألوهية، فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالألوهية محبة له، متعبدة، لا تشرك به شيئاً، وأصل هذا العلم فطري ضروري وأشد رسوخاً في النفس من مبدأ العلم الرياضي، كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي أن الجميع لا يكون في مكانين؛ لأن هذه المعارف قد تعرض عنها أكثر الفطر، أما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة، فالإقرار بالله هو أرسخ المعارف، وأثبت العلوم، وأصلح الأصول

- قال تعالى:{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾} [الروم: ٣٠ - ٣١].

- وقال تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

وقال عليه الصلاة والسلام:(ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكون أنتم تجدعونها)، " ثم يقول أبو هريرة:{فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ

عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال:(إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً).

وهذا صريح في أنه سبحانه خلقهم على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك.

وقد فطر الله عز وجل الإنسان أيضاً على معرفة الحق ومحبته له، وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم، يمكنه أن يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وجعل في فطرته محبة ذلك، فإذا نظر الإنسان فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أو في حاله في آياته أو نحو ذلك من شؤونه يحصل له العلم والإقرار بالنبوة، ثم إذا قوي النظر في أحواله حصل له من اليقين الضروري الذي لا يمكن دفعه.

فلا شك أن الإيمان والاهتداء هو الأصل، وأن الكفر والضلال هو الطارئ الذي يطرأ على النفس لسبب من أسباب الضلال.

وقد أشارت الآيات والأحاديث التي أوردتها إلى بعض هذه الأسباب، فأشارت الآية الأولى أن الذي يصرف الفطرة عن الإيمان هو عدم العلم، فأشارت الآية الثانية إلى الغفلة والتقليد، وأنهما يصرفان الفطرة عن الإيمان بالله ورسوله بعدما أقام عليه الحجة بالفطرة والرسالة﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

وأشار الحديث الأول إلى أثر التربية والعادة، وأن من لا يستخدم عقله

ويهتدي بالدين الحق الذي يرشده إليه العقل والعلم، بل يطيع والديه، وإن أمراه بالضلال. وأشار الحديث الثاني إلى أثر الشياطين في تزيين الباطل في نفوس الناس وإضلالهم بذلك.

إن أول أسباب الهداية، هو إبقاء هذه الفطرة نقية صافية تتلقى وحي الله وتستجيب له.

2- استعمال السمع والبصر والعقل:

إن الله عز وجل وهب الإنسان هذه النعم وامتن عليه بها، وذلك لما لها من غايات سامية، منها النظر والتفكر في آيات الله المرئية، والاستماع والتدبر في آيات الله المسموعة.

- وقال تعالى:{وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾} [النحل: ٧٨].

وقد جعل الله الإنسان مسؤولاً عن استعمال هذه الملكات والمواهب وعن حسن توجيهه لها إلى ما خلقت له، قال تعالى:{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا } [الإسراء: ٣٦].

وقد مضت سنة الله أن الإنسان إذا أحسن استخدام مواهبه من حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس، وما يجيء به الرسل من آيات وبينات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص.

وبين سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أن الذين ينتفعون بالنظر في هذا الكون ومظاهره هم الذين يمعنون النظر والتفكير والتدبر بعقولهم، قال تعالى:{إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى

تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾} [البقرة: ١٦٤].

- وقال تعالى:{إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

إن الله عز وجل وهب الإنسان من القوة والملكات ما جعله طريقاً إلى هدايته إذا أحسن استخدامه، فاستعمال السمع والبصر والفؤاد في النظر في آيات الله، والتفكر في دلالاتها من أول سبل الهداية إلى معرفة الله وصفاته، وإلى الإيمان بصدق رسله، وإلى مزيد من ذلك الهدى بعد الإيمان.

3- العلم:

ومن أسباب الهداية حسب سنته سبحانه وتعالى في الهداية والضلال: العلم، وقد كانت أول آية نزلت في القرآن الكريم في الدعوة إليه{ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾} [العلق: ١].

وتوالت آيات القرآن الكريم بما يضيق المجال عن حصره في الدعوة إليه بيان فضل العلماء.

- قال تعالى:{وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا} [طه: ١١٤].

- وقال تعالى:{يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ} [المجادلة: ١١].

- وقال تعالى:{قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ} [الزمر: ٩].

- وقال تعالى:{ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ} [محمد: ١٩]، فأمر بالعمل بعد العلم.

وقد جاء القرآن الكريم يكشف لنا بوضوح عن تلك العلاقة الوثيقة بين العلم والهداية في آيات كثيرة، وذلك بحديثه عن العلماء واستعدادهم بما لهم من علم لخشية الله، وحسن النظر في آياته والاعتبار بها، وإدراك ما فصله الله منزلاً على رسوله، وشهود وحدانيته سبحانه وتعالى.

قال الله عز وجل مبيناً أن العلماء هم الذين ينتفعون بالآيات المبثوثة في الكون، وهم الذين يستشعرون عظمة الله وقدرته، فيخشونه فيهديهم الله، قال تعالى:{أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾} [فاطر: ٢٧ - ٢٨]، فالذين يستفيدون من اختلاف ألوان الثمار والجبال والناس هم العلماء، وهم الذين يخشونه حق خشيته؛ لأنهم العارفون به وبصفاته جل جلاله، وكلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت هدايتهم كذلك أتم وأكمل.

وقال تعالى:{ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ

﴿٥﴾} [يونس: ٥].

والعلماء هم أكثر استفادة وإدراكاً واتعاظاً واعتباراً، بالأمثال التي يضربها الله عز وجل في كتابه العزيز؛ ولأن امتلاكهم الأداء التي يعرفون بها عظمة وصدق هذه الأمثال، قال تعالى:{ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣] الذين يعقلون عن الله عز وجل وأما مغلقي القلوب فيتخذونها مادة للسخرية والتهكم.

كما أنهم الأكثر استفادة من تبيين الآيات القرآنية وتوضيحها وتفصيلها وغير العالم يستوي عنده الإجمال والتفصيل؛ لأنه لا يملك الأداة التي يميز بها بين دينك الأمرين قال تعالى:{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾} [الأعراف: ٣٢].

- وقال تعالى:{فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾} [التوبة: ١١].

- وقال تعالى:{وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾} [الأنعام: ٩٧].

كما أن العلماء هم أكثر تأثراً بكلام الله سبحانه وتعالى وأسرع استجابة له وأعظم خشوعاً وإخباتاً لعظمته، وجلاله، وأعظم إدراكاً لمحكمه ومتشابهه مما يجعلهم أكثر تسليماً وإذعاناً لما يتضمنه من عقائد وأحكام.

- قال تعالى:{قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾} [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧].

وإن العلماء هم الذين يعرفون قدر كلام الله وعظمته وإعجازه، وإن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر فيدفعهم ذلك إلى الإيمان والتسليم والإذعان والاستفادة مما حوى من هدى وبيان.

- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: ٤٨ - ٤٩].

والعلماء هم الأبعد عن إلقاءات الشيطان ونزغاته، ووسوسته وذلك لعلمهم بمداخله وأحابيله، فلا تزيدهم وسوسته إلا إيماناً ويقيناً وتسليماً بخلاف الجهلة الذين ينقادون لوسوسته وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج: ٥٣ - ٥٤].

- وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ١٨].

ولا تدل هذه الآية الكريمة على مجرد تشريف الله سبحانه لأهل العلم حيث جمع شهادته بالتوحيد إلى شهادة ملائكته وشهادتهم بذلك، ولكنها

تدل كذلك على أن علمهم هو الذي يؤهلهم إلى شهود وحدانية الله عز وجل وإنفراده بالملك والتدبير، فالعلم من أول أسباب الهداية إلى معرفة طريق الله، والاستزادة منه سبيل إلى المزيد من هداه.

4 - الإيمان:

إن في كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وفي كل كائن من الكائنات لآية باعثة على الهدى، وإن في ذلك التنسيق البديع والتوافق بين سائر الكائنات لتوائم حياة الإنسان وسعادته فوق الأرض لآيات وآيات كثيرة تبعث على الاهتداء إلى الحق، وإن في القرآن الكريم وما حوى من دلائل وبينات وما جاء فيه من موعظة وآيات تحيي القلب، وتشفي الصدور، وتهدي إلى الحق والصراط المستقيم، ولكن هذه الآيات وتلك لا تتضح ولا ينتفع بها إلا القلب المؤمن، فالكفر حجاب وحاجز كثيف يمنع من دخول نور القرآن في القلب، ويمنع كذلك من الانتفاع بالآية الهادية في هذا الكون، فإذا زال هذا الحجاب وانكشف ذلك الحاجز انتفع الإنسان بتلك الآيات الكونية، وانفتحت أمامه أيضاً كنوز القرآن من الهدى والمعرفة، وقد جاءت آيات كثيرة تبين أن المؤمن هو الذي ينتفع ويستفيد من الذكرى ومن هدى القرآن، ومن الآيات الباعثة على الهدى في هذا الكون:

- قال تعالى:{طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾} [النمل: ١ - ٢].

- وقال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾} [يونس: ٥٧].

- وقال عز من قائل:{قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن

رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: ٢٠٣].

- وقال تعالى:{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾} [النحل: ١٠٢].

وقد أشارت هذه الآيات - وغيرها من الآيات في هذا المعنى - إلى معنيين رئيسيين هما:

الأول: وهو أن القرآن الكريم فيه بيان وإرشاد لطرق الهداية، وإنه زاجر بما فيه من الترغيب والترهيب، وارتكاب المعاصي، وإنه شافي لما في الصدور من الأمراض المفضية إلى الهلاك والشك والشرك والنفاق والضلال، وأنه هدى من الضلالة إلى الرشد والحق، وأنه يزيد المهتدي هدى، وأنه تثبيت أيضاً للمهتدين على الهدى، وهو أنه رحمة للناس بكل ما حوى من أوامر ونواه واعتقادات وعبادات وأنه نجاة لمن آمن به من عذاب الله وسبب في فوزه ودخوله الجنة.

الثاني: أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بهدي القرآن ويستفيدون مما حوى، فيهتدون بهديه، ويسيرون وفق هداه، فيهتدون إلى صراط مستقيم دون غيرهم من الجاحدين والكافرين به الذي هو عليهم عمى وضلالة وغم وخزي، وفي الآخرة جزاءهم على الكفر به الخلود في لظى، وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات منها:

- قال تعالى:{هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} [فصلت: ٤٤].

- وقال تعالى:{ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾} [الإسراء: ٨٢].

- وقال تعالى:{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ } [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

هذا بخصوص هداية القرآن، وأن المؤمنين هم المنتفعون بهديه، وما حوى من آيات، وأما عن الآيات الكونية وأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بها ويهتدون بما ترشد إليه من التوحيد، ومن إضافة صفات الكمال لله سبحانه وتعالى، فقد جاء في مثل قوله سبحانه:

- قال تعالى:{ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩} [النحل: ٧٩].

إن مشهد الطير وهي تحلق في جو السماء{مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ} [النحل: ٧٩] مشهد عجيب بديع ذهب ما به من عجب: الإلفة والتكرار، ولكن قلب المؤمن هو الذي يشعر بإبداع الخلق والتكوين، ويدرك ما فيه من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر، ويدرك قدرة الله وإبداعه وحكمته فيما أودع فطرة الطير من سنن تمكنها من الطيران، وما أودع الكون من حولها من سنن مناسبة لهذا الطيران.

ومثل قوله سبحانه وتعالى:{أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٨٦} [النمل: ٨٦].

ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجداناً دينياً يجنح إلى الاتصال بالله الذي يقلب الليل والنهار، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان.

وقال سبحانه وتعالى مبيناً انتفاع المؤمنين بما في السماوات والأرض

من آيات، قال تعالى:{إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾} [الجاثية: ٣].

وإذا كان الإيمان سبباً في اهتداء العبد إلى الحق، وانكشاف الحجب أمام بصيرته، فإنه كذلك سبب في هدية الله في العبد وإعانته وتوفيقه وزيادته هدى إلى الصراط المستقيم، وتثبيته عليه، وقد جاءت آيات كثيرة تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها، منها:

- قوله تعالى:{وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} [التغابن: ١١].

- وقال عز من قائل:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾} [يونس: ٩].

- وقال تعالى:{ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾} [إبراهيم: ٢٧].

- وبين سبحانه وتعالى صفات المؤمنين الذين يهديهم فقال: {ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾} [البقرة: ٢-٥].

5 – الاهتداء:

من أسباب الهداية المؤدية بالعبد إلى مزيد الهدى والتثبيت على الصراط المستقيم: اهتداؤه إلى الإيمان، والإتيان بأسبابه، فإذا فعل العبد ذلك، هداه الله بأن خلق فيه المشيئة المستلزمة للفعل، وألهمه ووفقه لطاعات، وزاده هدى وتوفيقاً، وأعانه وهو ما لا يقدر عليه إلا

الله سبحانه وتعالى، كما يزيد الذين ظلموا زيادة ضلال.

قال تعالى:{قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا} [مريم: ٧٥]، وهو من باب الجزاء من جنس العمل.

كما في قوله تعالى:{فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: ١٥٢]، وقوله تعالى:{إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ} [محمد: ٧].

وقد جاءت بعض آيات القرآن الكريم مقررة لهذه الحقيقة زيادة الهدى لمن اهتدى وفق سنته سبحانه وتعالى في هداية من سلك سبيل الهدى وقصده.

- قال تعالى:{وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾} [محمد: ١٧]، وقال تعالى:{وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى} [مريم: ٧٦].

وإن إيراد هداية الله مرة بصيغة الماضي، ومرة بصيغة المضارع، يفيد أن هداية الله لعباده بسبب اهتدائهم أمر محقق، وسنة جارية ماضية في الذين من قبل، وهي مستمرة ودائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ورد في تفسير قوله تعالى:{ٱهْتَدَوْاْ} معاني متعددة دلت عليها أقوال المفسرين فذهب بعضهم إلى أن المقصود من الاهتداء هو الإيمان، وجمع بعضهم بينه وبين التصديق بآيات الله، وربط بعضهم بينه بين الاتباع، وذهب فريق آخر إلى معنى{ٱهْتَدَوْاْ} أي: قصدوا الهداية وأرادوها.

وقال الطبري مبيناً اهتداء العبد وهداية الله له: ويزيد من سلك قصد المحبة واهتدى لسبيل الرشد، فآمن بربه، وصدق بآياته، فعمل بما

أمره به، وانتهى عمن نهاه عنه هدى على هداه وذلك نظير قوله:{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا} [التوبة: ١٢٤].

إن ترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر، والذين اهتدوا بدؤوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل{وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ} [محمد: ١٧]، والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هيبة الله، شاعراً برقابته، خائفاً من غضبه، متطلعاً إلى رضاه، متحرجاً من أن يراه على هيئة أو في حالة لا يرضاها، هذه الحساسية المرهفة هي التقوى، وهي مكافأة يؤتيها من يشاء من عباده حين يهتدون هم، ويرغبون في الوصول إلى رضى الله.

6 – الدعاء:

إن من أسباب الهداية حسب سنته سبحانه وتعالى أن يسأل العبد ربه ذلك؛ لأن ما يستطيعه العبد هو فعل الأسباب، وأما ما تحقق النتيجة وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، والإعانة والإلهام والتوفيق والتثبيت على الحق، فهي من شأن الله وفعله، لا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه وتعالى، فالعبد إذا فعل الأسباب التي يقدر عليها سأل الله ما لا يقدر عليه وهو الهداية، كمن يتعاطى العلاج للشفاء من المرض، ثم يسأل الله عز وجل الشفاء لأنه هو الشافي والدواء إنما هو مجرد سبب - والأسباب لا تؤدي إلى نتائجها إلا بمشيئة الله - ووفق قدر خاص لكل شئ منه سبحانه.

إن سؤال العبد لله سبحانه وتعالى بالهداية هو من الدعاء الذي وعد عليه بالاستجابة، كما في قوله تعالى:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ} [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى:{ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ} [غافر: ٦٠].

ولما كان سؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم من أجلِّ المطالب، ونيله أشرف المواهب، فقد علم سبحانه وتعالى عباده - في سورة الفاتحة - كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم، وتوحيدهم، هاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديتهم، وهاتان الوسيلتان لا يرد معهما الدعاء.

وهذا الدعاء يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية هي معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو - سبحانه وتعالى - المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها وهو جعل العبد مريداً للهدى، محباً له، مؤثراً له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا إلى نبي مرسل.

7 – الاعتصام بالله:

ومن بين الأسباب التي رتب الله سبحانه وتعالى عليها الهداية لعباده، حسب سنته تعالى في الهداية والإضلال: الاعتصام بالله وهو الامتناع بالله، والالتجاء والفزع إليه، والتوكل عليه في دفع شرور الكفار التي تؤدي بالمؤمنين إلى الضلال الذي يريده الكفار من المؤمنين عامّة في قوله:{وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ } [النساء: ٨٩]. واليهود خاصة كما ورد في قوله:{قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ

شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾} [آل عمران: ٩٩].

فقد بين سبحانه وتعالى أن الاعتصام بالله من التمسك بدينه، والتوكل هو العمدة في الهداية إلى الصراط المستقيم والعمدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد.

قال تعالى:{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾} [آل عمران: ١٠١].

فقوله:{فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١] جواب الشرط ولكونه ماضياً مع (قد) أفاد الكلام تحقق الهدى حتى كأنه حصل وأن الهداية حاصلة حسب سنته سبحانه لا محالة.

ونظراً لأهمية الاعتصام فقد جاءت عدة آيات في كتاب الله تدعو المؤمنين وتذكرهم بالاعتصام بالله وبعهده من ذلك قوله سبحانه وتعالى:{فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ} [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى:{ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟} [آل عمران: ١٠٣].

8 - الاتباع والطاعة:

ومن أسباب الهدى حسب سنته سبحانه وتعالى في الهداية والضلال الاتباع، وهو السير وفق الشرع ومقتضاه، واطراح كل شيء يخالف هدى الله سبحانه وتعالى، وطاعة الله في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو المبلغ عن الله سبحانه وتعالى، وبهذا فإن الاتباع يشمل الالتزام بما ورد في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، من عقائد وأحكام وأوامر ونواه وآداب وأخلاق، وكل ما

يرشد إليه كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالاتباع ليس مجرد شعار يرفع، وإنما هو تحقيق معناه في قلب المسلم وجوارحه وأفكاره.

ونجد القرآن، والسنة المطهرة، يركزان على الاتباع ويعتبرانه مناطًا بالهداية، والطريق الموصلة إلى السعادة والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الدلائل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد بين أهمية الاتباع، وأثره في الوصول إلى الهدى وتجنب الضلال عندما خلق آدم وأنزله إلى الأرض، قبل أن يرسل أنبياءه ورسله،، فكان ذلك دليلاً حاسماً على ما للأتباع من أهمية ومكانة في الوصول إلى الهداية والنجاة.

- قال تعالى:{قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾} [البقرة: ٣٨].

- قال تعالى:{ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾} [طه: ١٢٣].

وقد ربط الله عز وجل بين طاعته، واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، وبين الهداية، فجعل الطاعة والاتباع سبباً للهداية والرشاد.

- قال تعالى:{قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ } [النور: ٥٤].

فأخبر جل ثناؤه أن الهداية إلى المنهج القويم المؤدي إلى الفوز والفلاح في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه متعلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس عليه إلا البلاغ والبيان.

- وقال تعالى:{قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾} [المائدة: ١٥ - ١٦].

بين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن من اتبع كتاب الله وهو ما رضيه لعباده، فإن الله عز وجل يكافئه على ذلك بثلاثة أمور:

أولها: فهو يهدي من اتبعه سبل السلام الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه، فاتباع هذا القرآن يسكب السلام في الحياة كلها، سلام الفرد سلام الجماعة، سلام العالم، سلام الضمير، سلام العقل، سلام الجوارح، سلام البيت، سلام الأسرة، سلام المجتمع، سلام البشر والإنسانية، السلام مع الحياة ومع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة والسلام الذي تجده البشرية، ولم تجده إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضيه طرق السلام كلها.

الثاني: أنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، أي: يخرجهم من الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وهدايته لهم؛ لأن الجاهلية كلها ظلمات، ظلمة شبهات وخرافات، وحيرة وقلق وانقطاع عن الهدى، ووحشة واضطراب قيم.

الثالث: الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين في أقرب وقت؛ لأنه طريق لا عوج فيه ولا

انحراف، فيبطئ سالكه أو يضل في سيره، وقد جعل الله عز وجل اتباع رسوله فيما جاء به سواء كان مبيناً لمجمل القرآن، أو مقيداً لمطلقه، أو مخصصاً لعامه أو منشئاً لأحكام جديدة لم ترد في القرآن جعل ذلك سبباً من أسباب الهداية.

- قال تعالى:{قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: ١٥٨].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن التمسك بسنته عصمة من الزيغ والضلال والفتن، فقال:(**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**).

وقال تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مبيناً أنه عليه الصلاة والسلام لا يتبع أهواء الكافرين؛ لأن في ذلك انحرافًا عن الصراط المستقيم وسبيلاً إلى الضلال:

- قال تعالى:{قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ } [الأنعام: ٥٦]، أي: لا اتبعكم على ما تدعونني إليه لا في العبادة ولا في غيرها من الأعمال، لأنها مؤسسة على الهوى، وليست على شيء من الحق والهدى، فإذا فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق وسرت على غير هدى فصرت ضالاً مثلكم وخرجت من عداد المهتدين.

- وقال تعالى:{وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾}

[النساء: ١١٥]، أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له ويتبع غير سبيل المؤمنين، هذا ملازم للصفة الأولى:{نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥] أي: إذا سلك هذا الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسها في صدره ونزينها له استدراجاً له وجعل النار مصيره في الآخرة؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة.

ومن هذه النصوص وغيرها يتبين أن الاتباع مجبلة للهداية والرشاد، وعدم الاتباع موقع في الزيغ والضلال والهلاك.

9- الخشية:

ومن أسباب الهداية حسب سنته سبحانه وتعالى، خشية الله عز وجل والخوف منه، فإن خشيته عز وجل تجعل صاحبها أكثر من غيره استعداداً للتذكر إذا وعظ وذكر، وللاعتبار بما يرى من آيات الله في الكون والحياة وما تجري به سنته في أحداث التاريخ، وللانتفاع بالإنذار بعذاب الله في الدنيا والآخرة، والاهتداء إلى الحق إذا هدى إليه وآيات القرآن الكريم توضح هذه الحقائق أكمل توضيح، حتى أنها لتصور لنا ما يعتري الخائفين من الله إذا سمع آيات الهدى تتلى عليهم:

- قال تعالى:{ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٢٣)} [الزمر: ٢٣].

- وقال تعالى بعد أن ساق قصة فرعون، وما آل إليه أمره من النكال والهلاك قال:{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾} [النازعات: ٢٦] فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يخشى ربه فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب.

- ويقول الله عز وجل عن تأثير خشيته في قبول التذكرة{طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾} [طه: ١ - ٣].

- وقال تعالى:{فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ } [ق: ٤٥].

- وقال تعالى:{ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾} [الأنعام: ٥١].

فالذي يخشى يتذكر حين يذكر، ويتقي ربه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، خشية عقاب الله ووعيده، وهذه ألوان من الهداية يؤتيه الله سبحانه من يخشاه، وقد جاء التصريح بترتيب الهداية على خشية الله دون من سواه.

قال تعالى:{فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [البقرة: ١٥٠].

فالهدى إنما يكون نتيجة لخشية الله وحده دون من سواه؛ لأن ذلك يدفع من يخشى الله إلى اتباع أوامره واجتناب نواهيه، دون النظر إلى إنكار غيره ممن لا يخشاهم من البشر فطريق الهدى هو خشية الله وعدم الخشية ممن سواه.

10 - الإنابة:

ومن أسباب الهداية التي جعلها الله سبباً في زيادة الهدى لأصحابها، إنابة العبد إلى الله، إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور: محبته والخضوع له، والإقبال عليه والإعراض عما سواه.

- قال تعالى:{ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾} [غافر: ١٣].

- وقال تعالى:{ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾} [ق: ٦ - ٨].

وفي قوله تعالى:{ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾} [ق: ٨] دلالة على الإنابة سبب في الاعتبار لكل من تحققت فيه هذه الصفة، وأن هذه الصفة لتؤهلهم لثواب الله في الدنيا والآخرة فكما يثيب الله عز وجل عباده المنيبين إليه بالجنة في الآخرة، فإنه سبحانه يثيبهم أيضاً بالهداية في الدنيا حسب سنته في الهداية والإضلال، فيهديهم ويوفقهم إلى الرشاد وإصابة الحق، ويخلصهم لعبادته، والعمل بطاعته واجتناب ما حرمه ويوفقهم إلى تصديق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وإتباعه فيما جاء به وفي تقرير ذلك.

- قال تعالى:{ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾} [الرعد: ٢٧].

- وقال تعالى:{ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾} [الزمر: ١٧ - ١٨].

- وقال تعالى:{ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى: ١٣].

- وأما جزاء المنيبين في الآخرة فقد قال تعالى:{ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)} [ق: ٣١ - ٣٣].

- ولذلك فقد أمر الله سبحانه عباده بالإنابة كما في قوله تعالى: {۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤)} [الزمر: ٥٣ - ٥٤].

- وكما في قوله تعالى أيضاً:{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١)} [الروم: ٣٠ - ٣١].

11 - البراء من الكافرين:

ومن الطاعات التي خصص الله سبحانه وتعالى ذكرها وجعلها سبباً في زيادة هدى أصحابها، البراءة من الكافرين بالبعد عنهم والخلاص منهم والعداوة لهم وعدم موالاتهم بالتقرب إليهم أو إظهار الود لهم بالأقوال أو الأفعال أو النوايا، قال تعالى:{لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾} [المجادلة: ٢٢].

وليس البراء من الكافرين هم مجرد البراء من أشخاصهم، بل هو أيضاً البراء من أفعالهم وبغضها، وما ذلك إلا لأن ولاءهم هو سبيل الضلال أو الضلال بعينه كما جاء في قوله تعالى:{۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾} [المائدة: ٥١].

- وقال تعالى:{ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾} [التوبة: ٢٤].

والبراء من الكافرين يجنب صاحبه الوقوع في أعمال المعصية والضلال التي يقترفونها، ويجنبه التشبه بأعمالهم التي تؤدي به إلى الضلال، ثم إن البراء منهم تجنبه محاولتهم ثنيه عن إيمانه وهداه، قال تعالى:{وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ } [النساء: ٨٩].

12 - الجهاد: ومن أسباب الهداية الجهاد في سبيل الله، فقد رتب سبحانه وتعالى الهداية على الجهاد، وجعله سبباً من أسباب زيادة الهدى، قال تعالى:{وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾} [العنكبوت: ٦٩]. علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، ومراتب الجهاد أربع:

1 - جهاد النفس، وهو أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهد على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا

سعادة في معاشها ومعادها إلا بها، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق ويتحمل كل ذلك لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يُسمى (ربانياً) حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلّم فذاك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات.

2 - جهاد الشيطان وهو مرتبتان:

إحداهما:جهاده على دفع ما يأتي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

فالجهاد الأول: يكون بعدة اليقين،، والثاني: يكون بعدة الصبر.

- قال تعالى:{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾} [السجدة: ٢٤]، فأخبر أن أمامه الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع

الشكوك والشبهات.

3 - جهاد الكفار والمنافقين وهو أربع مراتب:

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان.

4 - جهاد الظلمة والفسّاق ثلاث مراتب:

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب:

الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد(**ومن مات ولم يغــز، ولم يحــدّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق**)، ولا يتمُّ الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والرّاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة قال تعالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾} [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كلِّ أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد، والإخلاص والإنابة والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة. وهجرة إلي رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره:(**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورســوله، ومــن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليــه**)، وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين، لا يتوب فيه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار المنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

ثالثا: الضلال ومراتبه:

الضلال: ضد الهدى، وضللت بعيري: إذا كان معقولاً فلم تهتد لمكانه، وضل عني: ضاع، وضللته: أنسيته.

ويقال لكل عدول عن المنهج عمداً، أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً: ضلال، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جداً، وإضلال الله للإنسان على وجهين:

إحداهما: أن يكون سببه وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة.

الثاني: من إضلال الله: وهو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه واستطابه وتعسر عليه صرفه وانصرافه.

والمقصود بإضلال الله للعبد هو: خذلانه وعدم توفيقه وإعانته وعدم خلق المشيئة المستلزمة للهداية.

والله سبحانه وتعالى يجعل ذلك في عباده ويخلقه فيهم بأسباب تكون من قبلهم، فهم إذا سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، سده عليهم اضطراراً، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوا، فيكون ذلك عقوبة لهم، كما يعاقبهم في الآخرة بدخولهم النار.

ومن رحمة الله بعباده، أن ما يفعله الله عز وجل من إضلال بعض عباده بالطبع والغشاوة والختم وغير ذلك، لا يفعله بالعبد لأول وهلة حين يأمره بالإيمان ويبينه له، وإنما يفعله به بعد تكرار الدعوة به سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منه،

والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوب هؤلاء العباد، ويختم عليهم، فلا يقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن معه ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية.

فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾} [البقرة: ٦ - ٧].

1 - حرية العبد في اختياره للهدى والضلال:

الأعمال التي يقوم بها الإنسان وفقاً لإرادته الحرة واختياره ورضاه، فالإنسان كائن عاقل مدرك مفكر، ويتميز عن غيره من المخلوقات بحرية الاختيار.

- قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾} [الحج: ١٨].

فهذه الكائنات جميعها لا حرية لها ولا اختيار، بينما الإنسان الذي يعمل بمحض إرادته الحرة ومشيئته المختارة، قد يطيع وقد يعصي، وأكد القرآن أن الإنسان الذي تحمل الأمانة والتكليف زوده الله بقوى وملكات واستعدادات لتحقيق تلك الخلافة ولأداء الأمانة، فخلق لديه الاستعداد للخير والشر، للتقوى والفجور، والهدى والضلال، ومنحه العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، والخير والشر، ووهبه القدرة التي لا يمكن عن طريقها أن يحق الحق ويبطل الباطل، أن يأتي الخير ويدع الشر، وأنزل الله الكتب، وأرسل الرسل لهداية الإنسان

وإرشاده لمنهج الحق والخير، وجعل في الإنسان قوة ذاتية واعية مدركة يمكن أن يستخدمها في تزكية النفس وتطهيرها، وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر، فيفلح الإنسان بهذا، وقد يظلم هذه القوة ويغطيها ويضعفها فيخيب، قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾} [الشمس: ٩ - ١٠].

وقد نطق القرآن الكريم، بإسناد الفعل إلى العبد في الكثير من آياته، مثل قوله تعالى:{جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأحقاف: ١٤].

- قال تعالى:{ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾} [فصلت: ٤٦].

وقال تعالى:{كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾} [المدثر: ٣٨].

وأثبت القرآن للعبد في غير ما آية منه في المشيئة الاختيار، فقال تعالى:{إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾} [الإنسان: ٣].

إن الإنسان حر، لقد زوده الله بالعقل والإرادة، يختار ما يراه من حق أو باطل، ويفعل ما يروق له من خير أو شر، فهو مزود بوسائل الإدراك، يدرك ما في الأشياء من قيم ويحكم عليها ويختار، وهو بالخيار أن يسلك طريق الحق والخير فيكون شاكراً، أو يعوج في طريقه فيجنح نحو الشر والباطل، فيكون كفوراً.

فالإنسان حر في دائرة أعماله الإختيارية والمرتبطة بالتكليف والمسئولية، وهذه الحرية يؤكدها ما يلي:

أ – واقع حياة الإنسان الذي يشعر بالفرق الواضح بين الأعمال الاختيارية وبين الأعمال التي تقع عليه اضطراراً.

ب – كما يؤكدها العقل الذي يقضي بأن المسؤولية والتكليف، لا بد أن تكون منوطة باستطاعة الإنسان على الفعل، أو الترك؛ لأن من لا يملك هذه الاستطاعة فلا يصح عقلاً أن تتوجه إليه المسؤولية أصلاً.

جـ – وإضافة إلى ذلك لو لم يكن الإنسان مختاراً، لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسيء، إذ أن كلاً منهما مجبر على ما قاله، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا فائدة لهما، حيث إن الإنسان مسلوب الإرادة، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله للعباد؛ لأن تكليفه إياهم مع سلب اختيارهم يتنافى مع العدل الإلهي الذي أثبته لنفسه، بل لو كان الإنسان مجبراً على أفعاله، لضاعت فائدة القوانين، ولبطل معنى الجزاء من الثواب والعقاب.

س – وقبل هذا كله، جاءت النصوص الشرعية تنسب العمل والاختيار إلى الإنسان، وما يكتسبه نتيجة لجهده، وثبت الجزاء بالجنة لمن أطاع، والنار لمن عصى.

- قال تعالى:{ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾} [الشورى: ٣٠].

- وقال تعالى:{ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾} [الروم: ٤١].

- وقال تعالى:{ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ } [الكهف: ٢٩].

- وقال تعالى:{ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾} [التكوير: ٢٨].

ولكن هذه المشيئة الإنسانية محدودة مرتبطة بمشيئة الله المطلقة

وتابعة لها، إذ إنَّ الإنسان يعمل أعماله الاختيارية، ويمارس حريته في العمل داخل دائرة صغرى تقع ضمن دائرة كبرى، هي نطاق النظام الكوني العام، إذ إن أعماله مهما كانت، واختياره مهما كان خيراً أم شراً حقاً أم باطلاً، لن يخرج في أدائه الأخير عن السنن الكونية التي وضعها الله في الكون، وتقوم عليها قوانين الحياة البشرية{لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾} [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

فمشيئة الله ليست منفصلة عن مشيئة الله تعالى، ولا مستقلة عنها، بل إنَّ الله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقتين: طريق الهداية وطريق الضلال، فإن اختار الطريق الأول، وفي نطاق المشيئة الإلهية، وإذا اختار الثاني ففي نطاقها أيضاً.

2 - التوفيق بين مشيئة الله ومشيئة العبد للهدى والضلال:

أسند الله عز وجل الهداية والإضلال إلى مشيئته سبحانه في كثير من الآيات، منها قوله تعالى:{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾} [النحل: ٩٣].

- وقال تعالى:{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾} [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى:{وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ } [الزمر: ٣٦].

والواقع أن هذه وأمثالها نصوص عامة، ولابد أن تحمل على النصوص المقيدة، فليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جزافاً بدون حكمة، أو بدون سنة ماضية في هذا الشأن؛ وذلك لأنه توجد هناك إلى جانب هذه الآيات العامة آيات أخرى تقيد مشيئة الله في

الهداية والإضلال بأحوال خاصة وأسباب معينة وهذه الآيات المقيدة تبين لنا من يشاء الله تعالى هدايته ومن يشاء إضلاله وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل.

لقد ربط الله عز وجل كثير من الآيات بين مشيئة العبد للهدى، والضلال ومشيئته سبحانه وتعالى لهما، والله سبحانه لا يشاء إلا العدل والرحمة وهذا الذي عرفه رسل الله عليهم الصلاة والسلام؛ ولهذا قال هود لقومه:{ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾} [هود: ٥٦]. فأخبر عن عموم قدرة الله ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف يشاء، ثم أخبر أن هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم أي سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما يشاء فإنه لا يشاء إلا العدل.

فهداية الله سبحانه لعباده أو إضلالهم إنما تقوم على أساس ترتيب المسببات على أسبابها والنتائج على مقدماتها، كما دل على ذلك كثير من الآيات ومنها:

- قوله تعالى:{وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ } [إبراهيم: ٢٧]، وقوله تعالى:{وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى: ١٣].

بين سبحانه وتعالى في الآية الأولى أن سبب إضلاله لبعض عباده هو الظلم، وبين في الآية الثانية أن سبب هدايته لبعض عباده هو إنابتهم إليه.

ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله من خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى:{فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا

يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ} [الأنعام: ١٢٥].

- وقال تعالى:{فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ} [الصف: ٥]، وقال تعالى: {وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ} [الليل: ٨ - ١٠].

وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالاً عاقبهم الله بها على فعل محظور وترك مأمور، وتلك الأمور إنما خلقت لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له، ولابد لهم من حركة وإرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلاً من الله، حيث وضع ذلك في محله القابل له، وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في السيئة: نفسك إن لم تشغلها شغلتك.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا عند قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾} [يونس: ١٠٠] أي: وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير إليه من استقلالها في أفعالها ولا مما أعطاها الله من الاختيار فيما هداه من النجدين، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين أن تؤمن إلا بإرادة الله، ومقتضى سنته في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتم الاستقلال، بل مقيدة بنظام السنن و الأقدار، فالمنفي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له.

3 – التوفيق بين القدر الأزلي واختيار الهدى والضلال:

ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً، يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والذي أثاره

اللاهوت المسيحي، والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً: إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال، وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها، ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى، ومع إرسال الرسل بالبينات لأيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل.. ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره، كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى، وأن يجري قدر الله كذلك لإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل، وما أعطاه من أجهزة الرؤيا والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية للهدى، وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقول سواه، وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاء هكذا، وما كان شيء ليقع إلا أن يوقعه قدر الله، فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة إلا بقدر الله ينشئ الأحداث.. وفي إطار هذه الحقيقة الكبرى يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضاً، وهذا هو التصور الإسلامي الي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج أو الجدل.

رابعاً: أسباب الضلال:

للضلال أسباب كثيرة وعوامل حسبما تجري به سنة الله في عباده من ترتيب النتائج على مقدماتها واتباع المسببات لأسبابها، وقد تكون هذه الأسباب والعوامل فكرية، أو نفسية، أو أخلاقية، وقد ترجع إلى التأثر بالوراثة أو البيئة، أو النشأة أو طبيعة الحياة التي يحياها صاحبها أو غير ذلك من الأسباب والعوامل والتي من أهمها:

1- عدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكر في آيات الله:

- قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١].

فهم صم لا يسمعون الحق، وعمي لا ينظرون إلى آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم أنه الحق.

- وقال تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: ٤٤].

فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة، والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى

الرشد وإلى الطريق - مع الدليل إليه - أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه.

- قال تعالى:{وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)} [الأعراف: ١٩٨]. فبين سبحانه عدم انتفاعهم بآيات الهدى.

- وقال تعالى:{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١)} [المدثر: ٤٩ - ٥١]. فهم قد نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها، ويعقرها وهم في جهلهم هذا كالحمر التي لا تعقل شيئاً.

- وقال تعالى:{وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)} [يوسف: ١٠٥].

بين سبحانه وتعالى إعراض الصالحين عن النظر في الآيات الكونية؛ ولذلك فإن الكفار يشهدون على أنفسهم إذا عاينوا نتيجة ضلالهم بعدم العقل والسمع{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)} [الملك: ١٠].

2 - الذنوب والمعاصي:

إن من أسباب الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى ارتكاب الذنوب والمعاصي، وذلك أن الذنوب سبب في صدأ القلب، وتكون الران عليه الذي يمنع من دخول الإيمان إلى قلب صاحبه، قال تعالى:{إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٢ - ١٤]. أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الران الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ثم إن

الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع فلا يكون للإيمان إليه مسلك ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تعالى في قوله:{خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ} [البقرة: ٧].

وجاء قوله تعالى مهدداً للذين يقترفون الذنوب والمعاصي بأن يطبع على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان.

- قال تعالى:{أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾} [الأعراف: ١٠٠].

ثم إن الذنوب والمعاصي سبب في مرض القلوب، لأن صحتها تكون بمعرفة الله وطاعته والإنابة إليه والتزام أمره واجتناب نهيه وإيثاره على غيره ومحبته والتوكل عليه وإفراده بالعبودية دون سواه، فإذا تتابعت هذه الذنوب وتكاثرت اشتد مرض القلب، ثم لا تزال الذنوب بالقلب حتى تغلب عليه فيموت بالكلية، ومن مات قلبه فإنه لا ينتفع بالهدى ولا الإيمان ولا يسمع ولا يعقل ولا يبصر.

فالقرآن الكريم لا ينتفع به إلا من كان حياً أما من صار في عداد الأموات فإنه لا ينتفع به.

قال تعالى:{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾} [يس: ٦٩ - ٧٠].

وقال تعالى:{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنعام: ٣٦].

3- اتباع الشيطان:

ومن أسباب الضلال الخطيرة والتي ضل بها كثير من الخلق، اتباع الشيطان الذي نذر نفسه وبذل عمره لإغواء بني آدم.

قال تعالى:{ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾} [الأعراف: ١٤ - ١٧].

- وقال تعالى:{ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ } [الحجر: ٣٦ - ٤٠].

وقد أمر الله عز وجل بالحذر منه، واستفراغ الجهد في معاداته وبين أنه عدو لدود وظاهر لبني الإنسان.

- قال سبحانه وتعالى:{ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾} [فاطر: ٦].

- وقال تعالى:{إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا} [الإسراء: ٥٣].

وقد جاء القرآن الكريم كاشفاً مداخل الشيطان وخططه في إضلال بني آدم في غير ما آية ومجمل هذه الخطط والمداخل ما يلي:

أ - الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم:

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾} [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩].

والسوء: الأثم، وقيل: معاصي الله، فإنما سماها الله سوءًا؛ لأنها تسوء

صاحبها بسوء عاقبتها له عند الله، وأما الفحشاء فهي كل مستفحشة ذكره وقبح مسموعه، وقيل: الزنى

ب - تزيين الأعمال الباطلة والمحرمة:

- قال تعالى: {فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾} [الأنعام: ٤٣] من الشرك والمعاندة والمعاصي.

وبين الشيطان أنه يزين لبني آدم أعمالهم ليغويهم، قال تعالى حاكياً قوله: {قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾} [الحجر: ٣٩].

- وقال تعالى مبيناً نتيجة تزيين الشيطان للناس أعمالهم وهو الضلال: {وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ } [النمل: ٢٤].

- وقال سبحانه وتعالى: {وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ} [غافر: ٣٧]، أي: صد عن طريق الهداية فأصبح ضالاً لا يقبل الهدى.

وبين سبحانه وتعالى أنه قد أضل هؤلاء الذين قبلوا تزيين الشياطين لهم فخلت بهم سنته في الضلال، وحق عليهم القول، فالشيطان حسنوا لهم أعمالهم في الماضي وفي المستقبل، فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، فعاقبهم بما ارتضوا لأنفسهم.

- قال تعالى: { ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾} [فصلت: ٢٥].

وتزيين الشيطان للناس أعمالهم على قسمين: فردي وجماعي، فالفردي كما في الآية السابقة من تزيين الشيطان لفرعون عمله، وأما التزيين الجماعي كما في قوله تعالى:{ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ } [العنكبوت: ٣٨].

جـ - الوعود والأماني الكاذبة:

- قال تعالى:{وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾} [النساء: ١١٩ - ١٢٠] أي: ولأضلنهم عن الحق {وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ} أي: أزين لهم ترك التوبة وأعدهم الأماني وآمرهم بالتسويف والتأخير، وأغرهم من أنفسهم{وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ } قال عدد من العلماء: يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة، وأما تغيير خلق الله: فهو دين الله، ومعنى تغيير الدين تحليل الحرام وتحريم الحلال.

ومن الوعود الباطلة التي يعدها الشيطان لأتباعه: أنهم إذا أنفقوا في سبيل الله فسيحل بهم الفقر.

- قال تعالى:{ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا } [البقرة: ٢٦٨].

وقد فسر ابن كثير: الفحشاء بالأمر بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخالق.

ح - الاستهواء:

ومن الناس من يضله الشيطان بعد أن كان قد عرف الإيمان وذاقه، وقد صور الله حالة هذا الذي استهواه الشيطان بعد أن كان مؤمناً فيقول، قال تعالى:{ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾} [الأنعام: ٧١].

فالذي استهوته الشياطين هو الذي استغوته وزينت له هواه ودعته إليه، يقال: هوى يهوي إلى الشيء أسرع فيه، بعد أن كان مؤمناً، ولفظ الاستهواء لفظ مصور وياليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه فيكون في اتجاه واحد، وهو الضلال، ولكن هناك من الجانب الآخر أصحاب يدعونه إلى الهدى يقولون: ائتنا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم، وهو بين هذا الدعاء وهذا الاستهواء في حيرة واضطراب وضلال وتيه.

د - الموالاة:

ومن الناس من يتخذ الشيطان وليًا ونصيرًا ومعينًا من دون الله، يلتجئ إليه ويدعوه، قال تعالى:{ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ } [الأعراف: ٣٠].

وقد قضى الله عز وجل فيمن تولى الشيطان أن يضله عن الصراط المستقيم ويهديه إلى عذاب الجحيم.

- قال تعالى:{وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ

يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾} [الحج: ٣ - ٤].

س – الاستحواذ:

ويبين الله سبحانه وتعالى فريقاً من الذين يضلهم الشيطان وهؤلاء الذين يستولي عليهم استيلاء تاماً، ويغلب على عقولهم وقلوبهم بوسوسته، وتزيينه حتى يتبعوه في كل ما يأمرهم به، ويصبحون أداة طيعة للشيطان، فينسيهم ذكر الله بقلوبهم وألسنتهم.

- قال تعالى:{ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾} [المجادلة: ١٨ - ١٩].

- قال تعالى:{ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾} [يس: ٦٠ - ٦٢].

4 – الجهل واتباع الظن:

- قال تعالى: مبيناً ضلال قوم ثمود:{ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾} [الأحقاف: ٢٢ - ٢٣].

- وقال تعالى مبيناً ضلال من اتبع جهله، ونسب إليه سبحانه الولد، قال تعالى:{ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا } [الكهف: ٤ - ٥].

- وقال تعالى مبيناً جهل كفار قريش بدعوتهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم إلى عبادة ما يعبدون من الأصنام والأحجار والآلهة المزيفة المدعاة، قال تعالى:{ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٦٣ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ٦٤} [الزمر: ٦٢ - ٦٤].

بين سبحانه وتعالى عقابه للذين لا يعلمون وسنته فيهم فقال: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩} [الروم: ٥٨ - ٥٩].

وأما اتباع الظن والذي هو مجرد حدس وخرص وأوهام والذي لا ينبني على علم، فإنه ولا شك سبب من أسباب الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى، فقد سجل القرآن الكريم في كثير من الآيات على كفار قريش ضلالهم بسبب إتباعهم الظن - كسابقيهم من الكافرين - وذلك بجعل الأصنام شركاء لله، وبعبادتهم لها وزعمهم أنهم مجبورون في ضلالهم هذا وغيهم.

- قال سبحانه وتعالى:{ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٦٦} [يونس: ٦٦].

- وقال تعالى:{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ٣٦} [يونس: ٣٦].

- وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢} [الجاثية: ٣٢].

5 - الجدال في الله وآياته بغير علم:

ومن أعظم أسباب الضلال: الجدال في توحيد الله وصفاته، وشرعه، وقدره، وكتابه، واليوم الآخر بغير علم، يدفعهم لذلك الكبر، والجهل، والحسد والتعصب، ويزعمون للناس ولأنفسهم أنهم إنما يناقشون ويجادلون؛ لأنهم لم يقتنعوا بالحق، وأنهم غير مستيقنين فيه.

- قال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾} [غافر: ٥٦].

- وقال تعالى: {كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾} [غافر: ٣٤ -٣٥].

وقال تعالى: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾} [الحج: ٨ - ٩].

6 - الغفلة:

من أسباب الضلال - أيضًا - غفلة الناس عن الأدلة الموصلة إلى الحق والهدى، وعدم النظر فيها:

- قال تعالى: {إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾} [يونس: ٦ - ٨].

- وقال سبحانه وتعالى:{ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} [الأنبياء: ١ - ٣].

- وقال تعالى:{ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾} [الأعراف: ١٤٦].

7- التعصب:

إن التعصب للباطل من أسباب الضلال، قال تعالى مبيناً أثر التعصب في ضلال اليهود، وعدم إيمانهم، واتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [البقرة: ٩١].

وقال تعالى مبيناً تعصب كل من طائفتي اليهود والنصارى لنفسها وزعم كل طائفة منهما أنها على الحق دون غيرها، فكفر اليهود بعيسى عليه السلام رغم أنه منهم، وقد كانوا ينتظرونه لإعادة مجدهم وعزهم تعصباً وقالت النصارى: أن اليهود ليسوا على شيء حقيقي من الدين لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم.

قال تعالى:{وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ

عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾} [البقرة: ١١١ - ١١٣].

8- التقليد:

إن من أسباب الضلال عند الكافرين من الأولين والآخرين التقليد للآباء دون نظر أو فكر، قال تعالى:{وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣]، وقال تعالى:{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾} [إبراهيم: ٩ - ١٠].

لقد كانت حجة الكافرين بالله المعرضين عن الانتفاع بالآيات التي جاءهم بها الأنبياء، قولهم:{إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٢]، وهي مقولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة، إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع حيث هو منساق ولا يسأل أين يمضي ولا يعرف معالم الطريق.

إنها: طبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول، لا يفكر أصحابها فيما يعبد آباؤهم ما قيمته؟ وما حقيقته؟ وماذا يساوي في

معرض النقد والتفكير؟

ومن الأقوام التي حدثنا القرآن الكريم عنها، وكان من أسباب ضلالها تقليد الآباء: قوم نوح عليه السلام الذين قابلوا دعوة نبيهم بالرفض والجحود بدون دليل أو سند سوى أنهم لم يسمعوا بمثل دعوته في آبائهم الأولين وكأن الحجة والدليل هو ما سمعوه من آبائهم.

- قال تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٢٣ - ٢٤].

وقوم عاد يعجبون مما ليس منه عجب، وينكرون على نبيهم أن يأتيهم بعبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الآلهة المتفرقة التي كان يعبدها آباؤهم الأولون فيسألون منكرين:{أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا} [الأعراف: ٧٠].

وبنفس العلة والحجة رفضت ثمود دعوة أخيهم ونبيهم صالح عليه السلام وجعلوا ما عليه آباءهم - سواء أكانوا سابقين أو حاضرين - حجة تمنعهم من الإيمان.

- قال تعالى:{ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾} [هود: ٦١ - ٦٢].

وكذلك نجد قوم إبراهيم يصرون على عبادة التماثيل التي لا تضر ولا تنفع ولا يجدون جواباً لسؤال نبيهم:{مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ}

[الأنبياء: ٥٢]، إلا أن قالوا:{ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾} [الأنبياء: ٥٣]، هذا هو الجواب، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد، في مقابلة حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله يحرر الإنسان من القدسات الوهمية التقليدية والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل.

وقوم شعيب يقولون لنبيهم:{ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾} [هود: ٨٧]. وقابل فرعون وملؤه دعوة موسى عليه السلام بالتقليد الأعمى المزري الذي يسيطر على العقول فيجعلها لا تفكر، وعلى البصائر فيقفلها فلا يجعلها تنظر أو تعتبر:{ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾} [يونس: ٧٨].

وأما كفار قريش فقد قال تعالى حاكياً أقوالهم:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾} [المائدة: ١٠٤].

- وقال تعالى:{ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ} [الزخرف: ٢١ - ٢٢].

- وقال تعالى:{ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ} [سبأ: ٤٣].

والقرآن الكريم وهو يدعو إلى هذا التحرر والتفكير يسوق الأدلة والآيات والحجج والبراهين التي تبرهن وتثبت أنه دين الله الذي فيه

نجاة البشر جميعاً من الظلمات إلى النور.

- قال تعالى:{هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: ٢٠٣].

- وقال تعالى:{ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٥١].

فمن تدبرها وعقلها وصل إلى الحق واهتدى، ومن هنا فقد كان سبيل المؤمنين المهتدين هو الاتباع عن بصيرة وبتدبر وتعقل، كما قال موسى عليه السلام عندما سأله فرعون: قال تعالى:{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾} [طه: ٤٩ - ٥٤].

وكما قال يوسف عليه السلام متبعاً ملة آبائه ولكن عن بصيرة ويقين، قال تعالى:{إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ} [يوسف: ٣٧ - ٣٩].

وهكذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى:{قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٦١ - ١٦٤].

- وقال تعالى:{ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾} [النحل: ١٢٣].

فاتباع الآباء، واقتفاء آثار السابقين من الذين هداهم الله عن بينة ودليل هو سبيل الهداية، كما قال تعالى بعد أن ذكر أنبياء الله الذين هداهم من: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط، ومن آبائهم وذرياتهم.

قال تعالى:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾} [الأنعام: ٩٠].

وأما اتباع الأبناء للآباء والأجداد وتقليدهم والتمسك بآرائهم، ومحاكاتهم في كل أقوالهم وأعمالهم من غير بينة ولا حجة ظناً منهم على الحق، دون النظر في أدلة من يدعوهم إلى الهدى، ويقيم الدلائل والبينات على صحة ما يدعوا إليه وهو الضلال، وهو سبيل الكافرين، وعلة الإعراض عن الإيمان بالله والسير على طريق الهدى الذي ارتضاه للناس.

9 - الشك والريبة:

ومن الأسباب التي يستحق بها بعض العباد الضلال: مرض القلوب وهو خروج القلب عن صحته، فإن صحته أن يكون عارفاً بالله، محباً له مؤثراً له على غيره، ومرض القلب هو شكه فمرض المنافقين هو مرض شك.

وقد جعل الله عز وجل ذلك سبباً في زيادة المرض في قلوبهم، وعدم إيمانهم، فالمرض ينشئ المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم ينفرج الزاوية في كل خطوة، سنة لا تتخلف.

- قال تعالى:{ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾} [البقرة: ١٠].

- وقال تعالى:{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ } [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

- وقال تعالى:{كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ } [غافر: ٣٤].

وبين سبحانه وتعالى في آية أخرى أنه يعاقب المنافقين الذين لا يوفون بعهودهم مع الله عز وجل بنفاق مستمر في قلوبهم إلى يوم لقائهم، وهذا حسب سنته سبحانه وتعالى في تأثير الأعمال على النفوس، وأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق ويقويه القلب.

- قال تعالى:{ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾} [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

ثم قال سبحانه وتعالى مبيناً أنه لا يهدي هؤلاء المنافقين؛ لأن سنته سبحانه وتعالى جرت في الممعنين في فسوقهم، وتمردهم المصرين على نفاقهم الذين أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان والهداية، قال تعالى:{ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ} [التوبة: ٨٠].

10 - الجحود:

ومن الأسباب التي رتب الله عز وجل عليها الضلال حسب سنته - سبحانه وتعالى - في الهداية والضلال: الجحود والذي يعني الإنكار مع العلم.

- قال تعالى:{وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾} [الأحقاف: ٢٦].

{إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ}: بمنزلة التعليل لسلبه إياهم ما أنعم عليهم به من السمع والبصر والعقل، حتى وقعوا في الضلال.

- قال تعالى:{وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾} [العنكبوت: ٤٧].

- وقال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾} [العنكبوت: ٤٨ - ٤٩].

- وقال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾} [لقمان: ٣٢].

والختار: الذي هو في غاية الغدر، والكفور: الذي لا يشكر نعمة الله، بل يجحدها.

- وقال تعالى: {وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾} [هود: ٥٩].

- وقال تعالى: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾} [النمل: ١٢ - ١٤].

- قال تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾} [الأنعام: ٣٣].

وإذا كان مصير الجاحدين بآيات الله في الدنيا الضلال والغواية، فإن مصيرهم في الآخرة الحسرة والندم؛ إذ يكونون من أصحاب النار.

- قال تعالى: {وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا

نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾} [الأعراف: ٥٠ - ٥١].

11 – التأبي والعناد والتعنت:

فالتأبي عن الإيمان، وعصيان أوامر الله يؤديان لصاحبهما إلى الضلال، قال تعالى:{وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾} [طه: ٥٦].

وأما العناد فحالة نفسية تدفع بصاحبها إلى التأبي عن الانصياع للحق على سبيل المكابرة دون أن تكون لديه مبررات بذلك، حتى ولو كانت مبررات زائفة أو باطلة.

- قال سبحانه وتعالى مبيناً أن العناد مانع عن الهدى وسبب في الضلال:{كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾} [المدثر: ١٦].

وقال مبيناً على الضلال ومصوراً شدة عناد الضالين.

- وقال تعالى:{ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾} [الحجر: ١٤ - ١٥].

- وقال سبحانه وتعالى عنه:{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾} [الأنعام: ٧]، وقد بلغ العناد من كفر قريش غايته، حين قالوا:{ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال: ٣٢].

وأما مثال التعنت ما كان من كفار قريش عندما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية من ست آيات اقترحوها، ولو عقلوا لأدركوا أن في القرآن وفي الكون أضعافاً مضاعفة عن هذا العدد أو هذه الآيات التي طلبوها، قال تعالى حاكياً قول كفار قريش:{ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا } [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

12 - الكبر: من أسباب الضلال طبقاً لسنته سبحانه وتعالى في الهداية والإضلال، وقد قال صلى الله عليه وسلم :(الكبر بطر الحق وغمط الناس).

وقال النووي الكبر هو الارتفاع عن الناس واحتقارهم ودفع الحق.

وقد وردت الآيات في ذم الكبر والمتكبرين وهو سبب الضلال والإضلال.

قال سبحانه وتعالى عن الكفار:{ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾} [الصافات: ٣٥]، أي: يتعظمون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون.

- وقال تعالى:{ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾} [النحل: ٢٢].

وقال عن ضلال اليهود بسبب كبرهم:{أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾} [البقرة: ٨٧].

وقال عن كبر كفار قريش وامتناعهم لذلك عن الإيمان، كسابقيهم: {۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾} [الفرقان: ٢١].

وأما قوم نوح فقد وصفهم نبيهم عليه السلام كما حكى القرآن

ذلـــــك:{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾} [نـــوح: ٧]، فقولـــــه:{جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ} لئلا يسمعوا صوتي{وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ} أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروني، وقيل جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي فيكون استغشاء الثياب على هذا النحو زيادة في سد الأذان.

- وقـــال تعـــالى:{ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾} [لقمان: ٧].

- وقال تعالى:{يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾} [الجاثية: ٨].

- وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾} [المنافقون: ٥].

وإذا كان المتكبر يدفعه كبره ألا يسمع آيات الله، وإذا سمعها فلا ينظر فيها ولا يتدبرها، ولا ينقاد إلى ما تدعو إليه من الهدى، فإن ذلك يستتبع نتائجه في عقله وغيبه، وذلك بصرف الله إياه عن الانتفاع بآياته سواء الكونية أو السمعية.

- قال تعالى:{ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾} [الأعراف: ١٤٦].

ويعاقبه كذلك بالطبع على قلبه حتى يصير ذلك سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارقه ويغطي على قلبه ويستوثق منه فلا يدخله شيء من الهدى، قال تعالى:{كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر:

.[٣٥

13 - حب الدنيا والاغترار بها واتخاذها لهواً:

إن من أسباب الضلال شعور الإنسان إن هذه الحياة الدنيا مصادفة عمياء وأن الوجود بها ليس له هدف، قال سبحانه وتعالى رداً على من كان ذلك معتقدهم:{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾} [المؤمنون: ١١٥].

- وقال تعالى:{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾} [القيامة: ٢٠ - ٢١].

وقال الله عز وجل:{اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [إبراهيم: ٢ - ٣].

- وقال تعالى:{ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [النجم: ٢٩].

- وقال تعالى:{ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾} [يونس: ٨٤ - ٨٨].

- وقال سبحانه وتعالى مسجلاً عى الكافرين بسبب غرورهم بالدنيا:{ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الجاثية: ٣٥].

ثم إن حبهم لهذه الدنيا يدفعهم إلى الانغماس في شهواتها ومنها إلى حد الترف الذي من طبيعته، أنه يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتستجيب وتستجيب.

فقال تعالى مبيناً أن المترفين اتبعوا ترفهم وكفروا بما أرسل به المرسلون:{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾} [هود: ١١٦].

- وقال تعالى ذكره:{ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾} [سبأ: ٣٤].

14 - اتباع الهوى:

والمقصود بالهوى ميل النفس للشهوة

لقد جرت سنة الله تعالى في الهداية والإضلال أن يكون أتباع الهوى سبباً من أسباب الضلال.

- قال تعالى:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ } [القصص: ٥٠].

- وقال سبحانه:{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾} [الأنعام: ١١٩].

- وقال سبحانه:{وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ } [ص: ٢٦].

- وقال عز وجل: {أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)} [الجاثية: ٢٣].

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حيث تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب، حين تتعبد هواها وتخضع له، وتجعله مصدراً لتصوراتها، وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها، وتقيمه إلهاً قاهراً لها مسؤولاً عليها، تتلقى إشارته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول، يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد{أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ}؟ أفرأيت أنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب، وهو يستحق من الله أن يضله، فلا يتداركه برحمة الهدى فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبد هواه المريض{وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ} على علم من الله باستحقاقه للضلالة، أو على علم منه بالحق لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلهاً يطاع، وهذا يقتضي إضلال الله له، والإملاء له عمياه{وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً} فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى، طاعة العباد والتسليم{فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ} والهدى هدى، وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة، فذلك من شأن الله الذي لا يشاركه فيه أحد، حتى رسله المختارون،{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربقة الهوى، وعاد إلى النهج الثابت الواضح، الذي لا يضل سالكوه.

وهذه السنة سنة الله في إضلال من اتبع هواه تحققت في أقوام سابقة وستمضي دائماً في كل قوم يتبعون أهوائهم ويحيدون عن الحق.

- قال تعالى:{فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ} [القصص: ٥٠].

- وقال تعالى:{وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾} [النازعات: ٤٠ - ٤١].

وقد حذر الله عز وجل نبيه داود عليه السلام من أن يؤثر هواه في قضائه بين الناس على الحق والعدل فيه فيكون نتيجة ذلك ميله عن طريق الله الذي جعله الله عز وجل لأهل الإيمان به، فيكون من الهالكين بضلاله عن سبيل الله، قال تعالى:{يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾} [ص: ٢٦].

وقال تعالى محذراً خاتم الأنبياء والمرسلين من طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه المتقلب وآثره على الحق.

- قال تعالى:{وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا} [الكهف: ٢٨].

ومن المواطن التي حذر الله عز وجل عباده من اتباع الهوى فيها ما جاء في قوله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا} [النساء: ١٣٥].

- وقال تعالى:{قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾} [المائدة: ٧٧].

- وقال تعالى مبيناً عدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم للهوى تجنباً لما يستتبعه الهوى من الضلال:{قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ } [الأنعام: ٥٦].

- وقال تعالى:{ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾} [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

وهكذا يتبين لنا بجلاء أهمية الهوى، وإن الوقوع في ذلك وقوع في الضلال، وبالتالي الوقوع في الفساد الشامل للسماء والأرض ومن فيهم كما قال تعالى:{وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ } [المؤمنون: ٧١].

فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة، ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى والحب والبغض والرغبة والرهبة والنشاط والخمول وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات، وبناء الكون وبما فيه الإنسان يحتاج إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد.

15 – الاستهزاء بآيات الله، ورسله، والمؤمنين:

- قال تعالى: {ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾} [الكهف: ١٠٦].

- وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾} [الفرقان: ٤١].

- وقال تعالى: {إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ} [المؤمنون: ١٠٩ - ١١٠].

وهكذا فإن الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنون، يشغل صاحبه عن التدبر والتفكر في دلائل الإيمان التي في الوجود، وفي دلائل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشغله أيضاً عن الاعتبار بما أثر الإيمان في نفوس أصحابه وحالهم وسلوكهم، وإن ذلك الاستهزاء أيضاً يباعد بينه وبين صاحبه عن كل الدلائل والبينات ولا شك أن ذلك كله يسلمه إلى الضلال والغي.

16 - الكفر:

بين - سبحانه وتعالى - في غير ما آية وإن سنته في الكافرين هي أن يعاقبهم بالإضلال وعدم الهداية، وقد جاء التعبير عن كفرهم هذا بالظلم تارة، وبالفسق تارة أخرى، وبالتكذيب ثالثة، وبالإجرام رابعة، ليضيف كل لفظ من هذه الألفاظ معنى آخر، بالإضافة إلى معنى الكفر، وقد جاء بيان جزائهم في أكثر من سياق؛ سواء في الكفر، أو الفسق، أو الظلم، ليكشف أيضاً علل ذلك الكفر، وصفات الذين حكم عليهم بالكفر أو الفسق أو الظلم وعدم الهداية لهم، ومن خلال تتبع الآيات التي جعلت الظلم والفسق والكفر والإجرام سبباً في الضلال

وعدم الهداية، وتبين أن المقصود بمعظمها الشرك وعدم الإيمان بالله وما يترتب عليه، وجحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بها، وإن كان لكل لفظ من هذه الألفاظ له معناه الذي يختص في الأصل والوضع.

أ - الفسق: والفسق يقع على كثير الذنب وقليله، ولكنه تعورف بالكثير أكثر، ومن وجوه ورود الفسق في القرآن في الكفر وترك التوحيد، فالكافر فاسق لاخلاله بما ألزمه العقل واقتضته الفطرة السليمة، قال تعالى:{وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: ٥٥].

ومن الآيات التي بينت سنة الله في إضلال هذا الصنف من الناس والذي يجمع بينهم الكفر قوله سبحانه:{۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾} [البقرة: ٢٦].

- وقال سبحانه وتعالى:{ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾} [التوبة: ٢٤].

المعنى: قد مضت سنة الله تعالى في القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفتهم، كالمنافقين أن يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التي يعرفها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من أتباعه فيؤثرون حب القرابة والمنفعة العارضة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد المفروض

في سبيله.

وقال سبحانه وتعالى في حق المنافقين وهم كافرون عن الحقيقة: {ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾} [التوبة: ٨٠].

أي: جرت سنة الله في الراسخين في فسوقهم وتمردهم، المصرين على نفاقهم الذي أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للهداية، والله عز وجل لذلك لا يهديهم، عقوبة منه لأنهم لا يستحقونها.

وأما ترتيب عدم الهداية بسبب الظلم: فقد ورد في آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى:{قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [الأحقاف: ١٠].

فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله ضل.

- وقال تعالى:{مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [الجمعة: ٥].

- وقال تعالى:{ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾} [التوبة: ١٩].

- وقال سبحانه وتعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ

ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾} [البقرة: ٢٥٨].

فالله عز وجل من سنته أنه لا يهدي الذي ظلم نفسه بالامتناع عن قبول الهداية، ولم ينظر في الدلائل التي توصل إلى معرفة الحق، ويستسلم للطاغوت، ويترك ما أعطاه الله من الفهم، إتباعاً لهواه وشهوته، وهو حينئذ قد ظلم نفسه وضل ضلالاً بعيداً.

ومن الآيات التي جاءت تبين أن الكفر سبب في تحقق الله في الإضلال:

قوله سبحانه:{إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ } [التوبة: ٣٧].

- وقال سبحانه وتعالى:{ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾} [المائدة: ٦٧].

- وقال تعالى:{ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾} [الزمر: ٣].

- وقال سبحانه وتعالى مبيناً أن التكذيب بآيات الله سبب في الضلال:{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ٩٥ - ٩٦].

وقال سبحانه وتعالى مبيناً أن الإجرام سبب في الضلال، وسبب في

حلول سنة الله فيمن هذه صفته{ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ} [الحجر: ١١ - ١٣].

17 - الغلو في الأنبياء والصالحين:

إن الإفراط والغلو في تعظيم الأنبياء والصالحين بالقول والاعتقاد والفعل وتجاوز الحد والحق في منزلتهم التي أنزلهم الله إياها من إدعاء الألوهية لهم أو صرف شيء من العبادة - لا تنبغي إلا لله - لهم مثل التشريع والذبح، والتضرع، والدعاء إلى غير ذلك من أنواع العبادات سبب في الضلال.

فأما عن ضلال اليهود والنصارى بسبب غلوهم، فقد قال تعالى: { وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾} [التوبة: ٣٠ - ٣١].

- وقال سبحانه وتعالى عن غلو النصارى في عيسى ابن مريم عليه السـلام:{يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾} [النساء: ١٧١].

18 - صحبة السواء والبيئة الفاسدة:

بين سبحانه وتعالى أن الصاحب السوء قد يكون سبباً في ضلال صاحبه، قال تعالى:{ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾} [الفرقان: ٢٧ - ٢٨].

ويصور القرآن الكريم جانباً من وسوسة صاحب السوء لصاحبه بقولـــه:{يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ } [الصافات: ٥٢ - ٥٣] على سبيل الاستهجان والاستبعاد للبعث والحساب، ثم يبين أنه لولا فضل الله على ذلك الصاحب وعدم استجابته له لكان هو وإياه في سواء الجحيم.

- قال تعالى:{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾} [الصافات: ٥٠ - ٥٧]، فمخالطة أهل السوء ومصاحبتهم ضلال، أو سبيل إليه، ومقاربة منه.

19 - التشبه بالضالين:

حذر القرآن الكريم بالتشبه باليهود والنصارى وسائر الكفرة؛ لأن هذا التشبه يؤدي إلى الضلال، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا }

[الأحزاب: ٦٩].

- وقـــال تعـــالى:{ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾} [آل عمران: ١٠٥].

- وقال تعالى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾} [الأنفال: ٤٧].

وكل ما ورد في القرآن من قصص اليهود أو النصارى، أو سائر الكفرة من الملل الأخرى في بيان معاصيهم وأخلاقهم ومعتقداتهم الباطلة، فيه عبرة لنا حتى لا نتشبه بهم فنضل كما ضلوا

20 - الابتداع في الدين:

البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقتصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية.

قال صلى الله عليه وسلم :(أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة)، فقوله: كل بدعة ضلالة: هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله صلى الله عليه وسلم :(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة. وعن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال:(أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا وعضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة).

ودوافع البدعة كما ذكر الشاطبي رحمه الله هي: الجهل، وحسن الظن بالعقل، واتباع الهدى، وكل ذلك من خطط الضلال وأسبابه والعياذ بالله، فالإحداث في الشريعة، إنما يقع إما من جهة الجهل، وإما من جهة تحسين الظن بالعقل، وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق، وهذا الحق بحسب الاستقراء في الكتاب والسنة.. إلا أن الجهات الثلاثة قد تنفرد وقد تجتمع، فإذا اجتمعت فتارة تتعلق بالأدوات التي تفهم بها المقاصد وهي اللغة العربية، فإن الله أنزل القرآن بلفظ عربي ولا يستخرج أحكامه ويعرف مقاصده إلا من كان على علم باللغة وأصولها، وتارة تتعلق بالمقاصد، وذلك بالجهل أن الله أنزل الشريعة على رسوله صلى الله عليه وسلم فيها وتبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله حتى كمل الدين بشهادة الله بذلك حيث قال تعالى:{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا} [المائدة: ٣].

فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء فقد كذب بقوله:{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ}.

وأما جهة تحسين الظن فتارة يشرك في التشريع مع الشرك، وتارة يقدم عليه، وهذان النوعان يرجعان إلى نوع واحد، وأما جهة اتباع الهوى فمن شأنه أن يغلب الفهم حتى يغلب صاحبه الأدلة أو يستند إلى غير دليل. من هنا يتبين أن الابتداع في الدين وعدم اتباع هدى الله سبحانه وتعالى سبب من أسباب الضلال.



المبحث السادس

سنة الله في الأخذ بالأسباب

المبحث السادس: سنة الله في الأخذ بالأسباب

سنة الله في الأخذ بالأسباب:

إن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدَّرة أيضاً كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدّر النتائج و المسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذهب عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الفرية، فالأسباب مقدّرة كالمسببات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الرّقي، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب، وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل.

إن سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن، والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال:(أعقلها وتوكل).

وقال:(وفر من المجذوم فرارك من الأسد)، وما غزواته المظفرة صلى الله عليه وسلم إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش، وبعث الطلائع والعيون وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة

وإلى المدينة وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيطة في هجرته، أعد الرواحل التي يمتطيها، والدليل الذي يصحبه وغير ذلك الطريق، واختبأ في الغار، وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد والمزاد وهو سيد المتوكلين.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى، وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، ولهذا أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى، وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، ولهذا أنكر عمر على أبي عبيدة رضي الله عنهما ربطه القدر بعدم الأخذ بالأسباب، كما ورد في قصة طاعون عمواس الشهير، فحين همّ عمر بالرجوع إلى المدينة في حدود الشام، قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فدهش عمر لهذا الاعتراض وقال لأبي عبيدة: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم أردف قائلاً: أرأيت لو كان إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصيبة والأخرى جديبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجديبة رعيتها بقدر الله.

فعمر وأبو عبيدة يعلمان أنّ القدر علم الله السابق بما يحدث غير أن عمر كان يرى أنّ قدر الله لا دخل له في موضوع ربط الأسباب بالمسببات، فالذهاب إلى الشام مع وجود الطاعون يتسبب عنه الموت والرجوع أخذ بالأسباب للنجاة من الطاعون، ولهذا أنكر عمر على أبي عبيدة أن يعترض عليه قائلاً له: لو غيرك يا أبا عبيدة، ولم يكتف بذلك، بل شرح رأيه بأن الذهاب إلى الشام ذهاب بقدر الله، والرجوع إلى المدينة رجوع بقدر الله، أي بعلم الله، مما يدل على أن

القدر لا يصح أن يربط بالإقدام على الأعمال أو الإحجام عنها، ولا يصح أن يترك الأخذ بالأسباب بحجة القدر.

ولهذا يذهب ابن القيم إلى: أن الدين هو إثبات الأسباب، والوقوف معها والنظر إليها، وأنه لا دين إلا بذلك كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة مبناهما على إثباتها (أي الأسباب) لا على محوها، ولا ننكر الوقوف معها، فإن الوقوف معها فرض على كل مسلم، لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك (الإيمان)، وبالأسباب عرف الله وبها عبد الله، وبها أطيع الله وبها تقرب إليه المتقربون، وبه نال أولياؤه رضاه، وجواره في جنته، وبها نصر حزبه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي، ومهتد وغوي، فالوقوف معها، والالتفاف إليها، والنظر إليها، هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً.

إن قدر الله حق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون؛ من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط.



أولا: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم:

القرآن الكريم حافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد، ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد.

1- قوله تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠].

إن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها؛ لأن التمكين لهذا الدين طريقه الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وفي قوله:{مَّا ٱسْتَطَعْتُم} قال ابن كثير: أي: مهما أمكنكم، وهذا التعبير القرآني يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا يقعد المسلمون عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقاتها، والمراد بالقوة هنا: ما يكون سبباً لحصول القوة ولهذا:

- قال أصحاب المعاني: الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما تتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة، وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال:(ألا إن القوة الرمي) قالها ثلاثاً. وهذا لا ينفي كون غير

الرمي معتبراً كما قوله:(الحج عرفة). وقوله:(الدين النصيحة). لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا. كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة{قُوَّةٍ} هنا نكرة لا معرفة فهي تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات.. وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة، وتدخل القوة الاقتصادية، والسياسية، والأمنية والإعلامية.. إلخ ومعنى{رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ}: هي اسم للخيل التي ترابط في سبيل الله تعالى.

ومعنى:{وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ} قال الطبري: هم كل عدو للمسلمين، وذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال جل شأنه:{تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ} ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له، ومستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم وذلك يفيد أمور كثيرة منها:

- أنهم لا يتجرؤون على دخول دار الإسلام.

- أنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم باحترام المسلمين والاستجابة لطلباتهم.

- أنه ربما صار ذلك داعياً إلى الإيمان لما يرون من قوة أهله وعزتهم.

- أنهم لا يعينون سائر الكفار.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً، وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة، فعليهم

أن يقرعوا الحديد بالحديد، ويقابلوا الريح بالإعصار، ويقابلوا الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه، وبكل ما امتدت إليه يدهم، وبكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح وعتاد واستعداد حربي، لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون.

إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وتترقى في مصاعد المجد، أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذي أمرها الله به في القرآن الكريم مراراً عديدة، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف.

إن إعداد القوة يستدعي إنفاقاً، وقد تكفل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، قال تعالى:{وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال: ٦٠]، وقد جاء التحذير من عدم الإنفاق في سبيل الله، مع بيان أن ذلك سبب للإهلاك والمذلة، وذلك في قوله تعالى:{وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥]، أي: إذ لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم، ففي الآية: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سبب الهلاك، وقد بين أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية، فعن أسلم بن عمران قال: كنا بمدينة الروم " القسطنطينية " فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صف للروم حتى دخل فيه فصاح الناس وقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل: وإنما أنزلت فينا

معاشر الأنصار، لما أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا:{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو.

وعموم الآية يقتضي الإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوي به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده.

إن من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين، سنة الأخذ بالأسباب ولذلك يجب على أفراد الأمة وقادتها العاملين للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.

إن الله عز وجل أمرنا بالإعداد الشامل في قوله:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ } [الأنفال: ٦٠]، وإعداد القوة في حقيقته الأخذ بالأسباب الشاملة، كقوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد، إن الآية الكريمة تضع أذهان المسلمين على الإعداد الشامل المعنوي والمادي، والعلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات وتدخل في طياتها الإعداد التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري.

2- قال تعالى:{وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾} [الكهف: ٨٣ - ٩٨].

فقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحها الله له واتبعها واستقصاها، حتى أنَّ القرآن يلح على ذلك ويبينه ويكرر التزامه في العمل بالأسباب، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات التي أشرنا إليها حيث يقول{فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾} [الكهف: ٨٥] وبعدها يكرر:{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾} [الكهف: ٨٩ - ٩٢]، وقرن ذو القرنين بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمان وتقوى، وعمل صالح في قوله:{قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾} [الكهف: ٩٨]، فاجتمعت له الأسباب الظاهرة والباطنة فكان له التمكين والغلبة ونفع الناس وإعانتهم.

وذو القرنين علم قرآني بارز، خلّد الله ذكره في كتابه الخالد، إنه الرجل الطواف في الأرض، الصالح العادل الخاشع لربه والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب، ولا جاه ولا قوة ولا سلطان، بل إنه بقي ذاكراً لفضل ربه ورحمته، متأهباً لليوم الآخر ليلقى جزاءه العادل عند ربه، ويكفي أن يبقى ذو القرنين تلك الشخصية العظيمة في التاريخ، وذلك العلم البارز في العدل والإصلاح والقيادة، ومثال الحاكم الصالح على مر التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة الكتاب الخالد.

إن القرآن الكريم اهتم بإخراج القيم الصحيحة في سيرة ذي القرنين وأعماله وأقواله مثل:

- الحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي أن يسخر لتنفيذ شرع الله في الأرض، وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين، ومنع الفساد والظلم، وحماية الضعفاء من بطش المفسدين.

- الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية في النواحي العسكرية والعمرانية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له فتح الخزائن أمامه وتقديم خراج الشعوب له طواعية، كل ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا.

- الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التي سعى إليها

حيث آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً.

الأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله عز وجل:

1 - الدستور العادل:

إن المنهجية التي سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعاني العدل المطلق في كل أحواله وسكناته ولذلك ساق الناس والأمم والشعوب التي حكمها بسيرة العدل، فلم يعامل الأقوام التي تغلب عليها في حروبه بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش، وإنما عملهم بهذا المنهج الرباني، قال تعالى:{قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾} [الكهف: ٨٧ - ٨٨].

وهذا المنهج الرباني الذي سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عدله ورحمته؛ لأن الناس الذين قهرهم وفتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعاً معاملة واحدة، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح، فهل يستوون في المعاملة؟ ذو القرنين: أما الظالم الكافر وسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبة له، فنحن عادلون في تعذيبه في الدنيا، ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخروي.

إن الظالم والباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذّب مرتين، مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذاباً نكراً، أما المؤمن الصالح فإنه مقرب من ذي القرنين يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبر

ومودَّة.

لقد كان ميزان العدالة في حكمه بين الناس هو التقوى والإيمان والعمل الصالح، ودائماً يتطلع إلى مقامات الإحسان.

2 – المنهج التربوي للشعوب:

إن الله تعالى أوجب العقوبة الدنيوية على من ارتكب الفساد في المجتمع، وكلف أهل الإيمان ممن مكن لهم في الأرض أن يحرصوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم؛ لكي تستقيم الحياة في الدنيا.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسؤول، أو حاكم، أو قائد منهجاً أساسياً، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى.

وهذا دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير، والجزاء الحسن عند الحاكم والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسناً، أو مكاناً كريماً، وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجدون ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ، تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب، وأداة فساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.

إن التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعل الحوافز المشجعات هدية للمحسن ليزداد في إحسانه، وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان، وتشعره بالاحترام والتقدير، وتأخذ على يد المسيء

لتضرب على يده، حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حد وفق قانون الثواب والعقاب المستمد من الواحد الديان.

3 - الاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير:

قال تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾} [الكهف: ٨٤] إنه شخص مكن له رب السماوات والأرض، الخالق المدبر المتصرف في شؤون الكون، رب العزة والجبروت، مكن له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض.

- مكن له في العلوم والمعرفة، واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً.

- مكن له في سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً.

- مكن له في أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر.

- مكن له في أسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة.

ومهما قيل، ومهما تصور من أسباب التمكين الحسنة التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾} [الكهف: ٨٤]، ويبقى للتصور مجال وللخيال سعة لاستشفاف صورة هذا التمكن وأشكاله، وذلك من خلال المؤكدات العدة التي وردت في الآية الكريمة.

ونلاحظ من خلال الآيات أن ذا القرنين وظف علوماً عدة في دولته القوية ومن أهم هذه العلوم:

- علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها، وسهولها؛ لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يخلو الأمر أن يكون في جيشه متخصص في هذا المجال.

- كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له:{ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾} [الكهف: ٩٦].

أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو ثم قال للعمال: انفخوا بالكير في القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين. فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة، قال للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: أتوني نحاساً مذاباً أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة، وهي طريقة استخدمت حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته.

- كان واقعياً في قياسه للأمور، وتدبيره لها، فقد قدّر حجم الخطر،

وقدّر ما يحتاج إليه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يعود منهاراً لأدنى عارض، أو في أول هجوم، ولهذا باءت محاولات القوم المفسدين بالفشل عندما حاولوا التغلب على ما قهرهم به ذو القرنين:{فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا} [الكهف: ٩٧]، أي لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملامسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخانته.

لقد كان ذو القرنين على علم بأخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع، ومع ذلك لم يتخذ من الأقدار تكئة لتبرير القعود والهوان، فقد بنى السد وبذل فيه الجهد، مع علمه بأن له أجلاً سوف ينهدم فيه لا يعلمه إلا الله.

4 – فقهه في إحياء الشعوب:

إن حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحتك بالشعوب والأمم وتكلم القرآن الكريم عن رحلاته:

– الرحلة الأولى:

لم يحدد القرآن الكريم نقطة الانطلاق فيها، وحدد النهاية إلى مغرب الشمس ووجد عندها قوماً، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح.

قال تعالى:{أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} [الكهف: ٨٧ -٨٨].

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل

الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى.

- **الرحلة الثانية:**

وهي رحلة المشرق حيث يصل إلى مكان يبرز لعين الرائي أن الشمس تطلع من خلف الأفق، ولم يحدد السياق أهو بحر أم يابسة، إلا أن القوم الذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا في أرض مكشوفة بحيث لا يحجبهم عند شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولي الشعرواي إلى أن المقصود بقوله تعالى:{لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا} [الكهف: ٩٠]، هي بلاد القطب الذي تكون فيه الشمس ستة شهور لا تغيب طوال هذه الشهور ولا يوجد ظلام يستر الشمس في هذه الأماكن.

ونظراً لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه؛ لأنها منهج حياة ودستور دولة مترامية الأطراف، وسياسة أمم، فهو ملتزم بها أينما حل أو ارتحل.

- **الرحلة الثالثة:**

تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر وكان المنطقة، ومن حيث الأعمال التي قام بها، فلم يقتصر

فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين، بل قام بعمل عمراني هائل، أما الأرض فوعرة المسالك، وأما السكان - وكأن وعورة الأرض قد أثرت في طبائعهم، وطريقة تخاطبهم مع غيرهم - ففي التفاهم والمخاطبة لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه، ولا أن يفقه ما يحدثه به غيره من غير بني قومه:{وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} [الكهف: ٩٣].

ونلاحظ من خلال السياق القرآني أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات منها:

- هم قوم متخلفون{لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}،هذا إما معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقوام الأخرى؛ لأنهم لم يطلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلقون على لغتهم فقط. وإمّا معناه: إن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون، ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم.

- هم قوم ضعفاء: ولذلك عجزوا عن صدّ هجمات يأجوج ومأجوج والوقوف في وجههم، ومنع أفسادهم.

هم قوم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم، ومقاومة المعتدين ولذلك لجؤوا إلى قوة أخرى خارجية، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم، والدفاع عن أراضيهم.

- هم قوم اتكاليون كسالى: لا يريدون أن يبذلوا جهداً، ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليها حقها، أما هم، فمستعدون لدفع المال له.لقد كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي الجاد لنقلها من الجهل والتخلف

والكسل والضعف إلى العلم والتقدم والنشاط والقوة، فكان يدير العمل بروح الجماعة، ويشترك بنفسه مع إشراك غيره، ويدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل في تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب في النظم القرآني الكريم مما يشير إلى روح الحماسة والحيوية والتعاون المشترك، قال تعالى:{مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾} [الكهف: ٩٥ - ٩٦].

لقد كان ذو القرنين حريصاً على مصلحة الناس، ناصحاً لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما في ذلك من تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما في الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون، فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سداً، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردماً، والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجعون.

لقد عفّ ذو القرنين عن أموال المستضعفين وشرع في تعليمهم النشاط والعمل، والكسب، والسعي، فقال لهم:{فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} [الكهف: ٩٥].

إن في هذه العبارة القرآنية معلماً بارزاً في تضافر الجهود، وتوحيد الطاقات، والقدرات والقوى.

إن القيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجيهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة

في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إن أمتنا الإسلامية ملأى بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة والأموال المهدرة والأوقات المبّددة، والشباب الحيارى وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف، {فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ}.

إن ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم وإنما توريثهم أسباب القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين، لقد كان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ يأجوج ومأجوج في الهجوم، ثم يهاجمهم ويهزمهم، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يلفتنا إلى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظل في انتظار هجوم الظالم، ولكن وظيفته منع وقوع الظلم.

ولم يأت ذو القرنين بجيوش لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك وإنما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ويتعلموا فنون الحماية ويكسبوا خبرات، ويتدربوا على العمل الجاد المثمر الذي يبنون السد بأيديهم، وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، وهذا يلفتنا إلى أن عطاء الله - سبحانه وتعالى -، عطاء إمكانات، وعطاء

ذاتي في النفس.. عطاء الإمكانات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتي في النفس: هو القوة الذاتية داخلك التي تعطيك طاقة العمل، وكثير منا لا يلتفت إلى عطاء النفس.. لا يلتفت إلى أنه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة، وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمّل بإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر.. وأن يعمل أعمالاً كثيرة.

إن ذا القرنين لم يستعن بجيشه ولا بأناس آخرين، إنما استعان بهؤلاء الضعفاء، وطلب منهم أن يأتوا بالحديد، ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس ليكون السد في غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوّى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم، وكيف يبنون السد، وجعلهم هم الذين يشتركون في البناء وهم الذين يقيمونه، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط، ليأخذوا الثقة في أنفسهم بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم، والإسلام ينهانا أن نعوّد الناس على الكسل أو نعطيهم أجراً بلا عمل؛ لأن ذلك هو الذي يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجراً بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبداً.

إن ذا القرنين قام بمهمة الحاكم الممكن له في الأرض، فقوى المستضعفين وجعله قادراً على حماية أنفسهم من العدوان ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين بل نقلهم إلى ساحة العاملين.

فعندما تحرك القوم المستضعفون نحو العمل بقيادة ذي القرنين،

وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة.

ونقف مع ذي القرنين بعد أن تمّ بناء السد:

- نظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه.

- ذكر ذي القرنين لربه عند انجاز عمله، يعلمنا كيف يكون ذكر الله سبحانه، فإن من أعظم صور الذكر، هي أن يذكر العبد ربه عند توفيقه في عمل، فيستشعر أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

- كان بناء السد رحمة من الله تعالى، وقد استخدم ذو القرنين علمه الذي علمه الله إياه، وتمكينه الذي مكنه الله له، استخدمه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، منع العدوان عنهم، فكان علمه رحمة من ربه، وكان استخدامه له رحمة من ربه.

- كان القوم مهدّدين بيأجوج ومأجوج، معرضين لإفسادهم ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً بإذن الله، فلو لم يتم عمل ولا جهد ولا حركة، لما انقذوا أنفسهم من الخطر، لأن الإنقاذ لا يتم إلا بالعمل والجهد المتواصل وتكاتف الجهود والانقياد الطوعي للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية.

-{فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا} [الكهف: ٩٨].

5 - **قوله تعالى:**{كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ۝٩١} [الكهف: ٩١]: وقبل أن

يكمل القرآن الحديث عن حروب ذي القرنين، وفتوحاته وقبل أن يتحدث عن مهمته في المنطقة الشمالية، توقف سياق القرآن ليقرر حقيقة أساسية وهي قوله: " كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ".

أي أن الله سبحانه كان عالماً بأحوال ذي القرنين مطلعاً على حركاته، محيطاً بأخباره وأخبار جيشه، فما يسيرون خطوة إلا بإذن الله، ولا يتحركون حركة إلا بمشيئة الله، ولا يكسبون معركة أو يحتلون بلداً إلا والله عالم بهم مطلع عليهم، خبير بهم ونقف لنتساءل عن الحكمة عن ذكر حقيقة إحاطة الله بأخبار ذي القرنين وجيشه وعلمه بها أثناء حديثه عن فتوحاته؟ إن الحكمة التي قد تبدو لنا هي: حرص القرآن على ربط كل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشيئته وعلمه سبحانه، حتى لا ينسى الناس هذه الحقيقة وهم يتابعون الأحداث، وحتى لا يظنوا أن الناس يتحركون بها بقدراتهم الذاتية، بمعزل عن علم الله وإذنه، فها هو ذو القرنين قام بفتوحات عظيمة، في الجبهة الغربية ثم في الجبهة الشرقية وقام بإنجازات عظيمة في الجبهة الشمالية، لكن الله مطلع على أعماله، محيط بأخباره، عالم بإنجازاته، وهو مقدّر لها ومريد لها سبحانه.

إن قصة ذي القرنين تدل على وجوب الأخذ بالأسباب وبيان أن ذلك ضروري للنهوض الحضاري للأمم، وقد قدم القرآن الكريم " ذا القرنين " أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج واعتبر ذلك مقدمة لابد منها للنهوض والإنجاز الحضاري، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن والأسباب نظرياً، لقد مكن الله له في الأرض فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم، ويسّر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما

هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة{فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾} [الكهف: ٨٥].

إن قصة ذي القرنين من قصص القرآن التي يتمثل بها من الدلالة على القدرة الفائقة لأصحابها، ومدى ما كانوا عليه من قوة وتمكين، ولكن بواسطة ما سنه الله من أسباب في هذا الكون، ووسائل تؤدي إلى غاياتها المراد منها، لتمثل بذلك أنموذجاً لكل مسلم يريد أن يسلك في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق، وليتقين كل أحد أن التمكين في الأرض والسعادة في الآخرة، إنما يتحصل بأسباب ووسائط سواء المادي منها والمعنوي، من ما تحقق به ذو القرنين.

6 - أخلاقه القيادية:

إن شخصية ذي القرنين تميزت بأخلاق رفيعة ساعدته على تحقيق رسالته الدعوية والجهادية في الحياة ومن أهم هذه الأخلاق:

- **الصبر**: كان جلداً صابراً على مشاق الرحلات، فمثلاً تلك الحملات التي كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة في التنظيم والنقل والتحرك والتأمين، فالأعمال التي كان يعملها تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم وآلات ضخمة وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك.

- **مهابته**: كانت له مهابة ونجابة يستشعرها من يراه لأول مرة، ولكنها ليست مهابة الملوك الظلمة الجبارين فعندما بلغ بين السدين، ووجد القوم المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلصاً من الظلم والقهر الواقع عليهم فبادروه بسؤال المعونة فمن الذي أدراهم

بأنه لن يكون مفسداً مثل المفسدين أو الظالمين، ومعه من القوة والعدة ما ليس لمثلهم.

- **الشجاعة**: كان قوي القلب جسوراً غير هياب من التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة إذا كان في ذلك مرضاة الله سبحانه، فإن ما طلب من إقامة السد كان عملاً عظيماً في ذاته، حيث إن القوم المفسدين كان من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه وإلى جنوده ولكنه أقدم وأقبل غير متأخر ولا مدبر.

- **التوازن في شخصيته**: فلم تؤثر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها - وقد سخرت له - كافية لإثنائه عن تواضعه وطهارته وعفته.

- **كثير الشكر**: لأنه كان صاحب قلب حي موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه سبحانه وقال:{هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [الكهف: ٩٨].

- **العفة**: كان مرتفعاً عن مال لا يحتاجه، ومتاع لا ينفعه، فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخراج، فأجابهم بعفة وديانة وصلاح: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، وما أنا فيه خير من الذي تبذلونه.

إن التوازن المدهش والخلاب في شخصية ذي القرنين سببه إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه؛ ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة

وهو تفضل من الله تعالى على عبده الصالح، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار. وكذلك أكرمه الله بكثرة الأعوان والجنود وقذف الرعب في قلوب الأعداء وتسهيل السير عليه، وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها، وتمكنه بذلك من تملك المشارق والمغارب من الأرض، فكل هذه الأمور لا تعطي لشخص عادي، ولا يمكن أن يحققها حاكم بحوله وقوته وذكائه مهما بلغ، إلا أن يكون مؤيداً من الله، ذلك التأييد الذي ينصر الله به عباده المؤمنين، ويدل على هذه العناية أيضاً ضمير العظمة في قوله:{وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} [الكهف: ٨٤]، أي: أمده بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوده بعلم منازل الأرض وأعلامها، وعرفه ألسنة الأقوام الذين كان يغزوهم فكان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم.

لقد أعطاه الله تعالى من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض، وأسبابه من العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً، وفي سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً، وأعطاه من أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، وأسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة، وقيل: مهما تصور من أسباب التمكين التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض. يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى:{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾} [الكهف: ٨٤].

لقد كانت رعاية الله تعالى لذي القرنين عظيمة بسبب إيمانه بالله

تعالى واستعداده لليوم الآخر، ولذلك فتح له باب التوفيق وفق ما سعى إليه من أهداف وغاية سامية.

لقد بذل ذو القرنين ما في وسعه من أجل دعوة الناس إلى عبادة الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة في الأرض شرقاً وغرباً، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران.

3- الأسباب التي اتخذها داود عليه السلام للتمكين لدين الله:

قال تعالى:{ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾} [البقرة: ٢٥١].

أكرم الله تعالى بقتل جالوت وبين القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان مجاهداً في جيش طالوت، وممن نجحوا في الامتحان العسير الذي قرّر رئيس الجيش أن يخوضه جميع جنوده فسقط من سقط، ونجح من نجح فقد رفع داود عليه السلام راية النصر، وشرع في إعادة التمكين لبني إسرائيل بعد قتله لجالوت، وكان إذ ذاك فتى، وتم له الظفر، فالتقت على محبته القلوب، وتأكدت له أوامر الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث بني إسرائيل، يكنون له في نفوسهم الاحترام والمحبة، والتوقير ومنذ ذلك الحين بدا نجمه يصعد

في السماء ويتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئه النصر يتبعه النصر، حتى ولي الملك أخيراً وأصبح ذا سلطان، وظهرت ملامح الحكم في زمنة في عدله وحكمه، وكان أوّابا رجاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة، والذكر والاستغفار، لقد كان منهج التغيير في زمن داود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمغ الباطل وإضعافه ووصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم.

– قال تعالى:{ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾} [ص: ١٧ - ٢٠].

إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له وهي تحقق للقائد المسلم كمال السعادة في الدنيا والآخرة، ومن أهم هذه الصفات.

– **الصبر**: فقد أمر الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

– **العبودية**: وقد وصفه ربه بقوله:{عَبْدَنَا}، وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم والوصف بالعبودية لله غاية التشريف كوصف محمد صلى الله عليه وسلم بها ليلة المعراج{سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ} [الإسراء: ١].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر داود عليه السلام تحدث عنه وبيَّن فضله واجتهاده في العبادة:(**إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام: كان ينام نصف الليل ويقوم**

ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً).

- القـوة عـلى أداء الطاعـة: والاحتـراز عـن المعاصـي فـي قولـه:{ذَا ٱلۡأَيۡدِ...}.

- الرجوع إلى الله بالطاعة في أموره كلهـا، فـي قولـه تعـالى:{إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ} [ص: ١٧]. وصـف بـالقوة علـى طاعـة الله، وبأنـه أواب دليـل علـى كمـال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح.

- تسبيح الجبال والطيور معـه:{إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾} [ص: ١٨ - ١٩] أي: إنـه تعـالى سـخر الجبـال تسبح معـه عنـد إشـراق الشمس وآخـر النهـار، كمـا قـال عـز وجل:{يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ} [سبأ: ١٠].

قال ابن كثير: وكذلك الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه إذا مر به الطير، وهو سابح في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، وترجع معه، وتسبح تبعاً له

- قوة الملك:{وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ} [ص: ٢٠] أي: قوينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً في جميع ما يحتاج إليه الملوك.

- الحكمة:{وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ} [ص: ٢٠] أي: أعطيناه الفهم والعقل والفطنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب.

- حسن الفصل في الخصومات:{وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ} [ص: ٢٠] أي: ألهمناه حسن الفصل فـي القضـاء بإحقـاق الحـق وإبطـال الباطـل، وإيجـاز البيـان، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل.

إن داود عليه السلام شدّ ملكه بالتسبيح والذكر والطاعة، فكان عليه السلام يسبح بالعشي والإشراق وتجاوبت الجبال مع ذكره العذب الجميل وكذلك تجاوبت الطيور، قال تعالى:{إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾} [ص: ١٨].

فوهبه الله هبة عظمى ذكرها في كتابه عز وجل:{وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾} [ص: ٢٠]، الذي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع الملوك العظماء، بحيث لا يتمكن منه أعداؤه لكثرة جيوشه، وكثافة حراسه الذين قيل: إنهم كانوا ألوفاً كثيرة يتناوبون في حراسته ولم ينكسر له جيش في معركة أبداً بعون الله ونصره.

أ – استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام:

قال تعالى:{يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾} [ص: ٢٦].

خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأن جعله حاكماً بين الناس في الأرض، فله الحكم والسلطة، وعليهم السمع والطاعة، ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم تعليماً لغيره من الناس:

-{فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ } أي: فاقضي بين الناس بالعدل، الذي قامت به السماوات والأرض، وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

-{وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ } أي: لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك، أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار، لذا قال:{فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ} أي: إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال، والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى:

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ} أي: إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل لهم عقاب شديد يوم القيامة، والحساب الأخروي بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق لكل إنسان، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل.

ب – هبة من الله مباركة وفتح وإلهام:

إن داود عليه السلام كان له كثير من الأبناء والأولاد إلا أن الله خصه بالابن الصالح النبي الملك سليمان عليه السلام، وأثنى الله عليه في كتابه بكونه أواب إلى الله - عز وجل - كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله - عز وجل - في أكثر الأوقات، ومن مزيد فضل الله على عبده داود أن وهبه سليمان الذي ورث عن أبيه الملك والنبوة، قال تعالى:{ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾} [ص: ٣٠].

لقد أكرم الله تعالى سليمان عليه السلام بالملك والنبوة وأعطاه الفهم الثاقب، والرأي السديد، ورجاحة العقل ومما يدل على ذلك قوله تعالى:{ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

ج – ابتكار في صناعة الأسلحة:

قال تعالى:{وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾} [الأنبياء: ٨٠]، كان داود عليه السلام أول من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلمها الناس منه، وإنما كانت صفائح فهو أول من سردها وحلقها فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين

على الدوام أبد الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

وذلك يقتضي الشكر؛ لذا قال تعالى:{فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ} [الأنبياء: ٨٠] أي: على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسول الله فيما أمر الله به والمراد: اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه النعمة، وهذا دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة وهذه الآية فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع، والأخذ بأسباب النصر على الأعداء، ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان، قال تعالى:{وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾} [سبأ: ١٠ - ١١].

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص، إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له، أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول وفي حسم انتصارات الجيوش.

وفي سورة الحديد نقرأ هذه الآية:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ } [الحديد: ٢٥].

سورة الحديد؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من التحضير والإبداع والبناء التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً

من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد " البأس الشديد " متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري و " المنافع " التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه " السلمي "؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً؟

إن الدولة المعاصرة التي تمتلك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل... وتستطيع أيضاً - أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها.

إن الله - سبحانه وتعالى - منح الحديد لداود عليه السلام وعلمه كيف يلينه؛ لأن الفائدة تتحقق بوجود الخام والقدرة على تشكيله، ولاشك أن ذلك ساعد على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الرباني والتطور العمراني والصناعي... إلخ.

وإذا تأملنا في آية الحديد نجد تداخلاً عميقاً وارتباطاً صميماً بين آية الحديد، وإرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته (البأس)، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله

مَن{يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ} [الحديد: ٢٥].

إن المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد، وتشكله وتستخدمه من أجل حماية الإسلام والتقدم به، وتحقيق النصر للمؤمنين، وإقامة شرع الله في مناحي الحياة.

إن قول الله تعالى:{وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ} [سبأ: ١٠] فيه إشارة إلى أهمية هذا الخام، وتوظيفه لخدمة الإنسانية في طاعة الله.

4 – الأسباب التي اتخذها سليمان – عليه السلام – للتمكين لدين الله:

تسلّم سليمان - عليه السلام - قيادة الدولة القوية التي أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى، لقد أوتي سليمان - عليه السلام - الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يؤت أحد مثلما أوتي، ولكنه أعطى قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم؛ هيأه لأن يكون شخصية فريدة متميزة في التاريخ، لقد أعطي النبوة، ومنح العلم، وأوتي الحكمة، وذلك مثلما أعطي أبوه من قبل.

أ – بداية التمكين:

قال تعالى:{ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾} [النمل: ١٥ - ١٦].

بدأ التمكين بتلك الإشارة{ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ...}، وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمة العلم، وعظمة المنة به من الله

على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين، ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه، لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار، وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذي أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مُبعداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه، وهو بعض مننه وعطاياه وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها، يفرد سليمان بالحديث: {وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ} [النمل: ١٦].

ب – فقه سليمان – عليه السلام – في إدارة الدولة:

إن القصص القرآني في سيرة سليمان أشار إلى أساليبه في إدارة الدولة والمحافظة على التمكين، وأهم هذا الفقه يظهر في النقاط الآتية:

- دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، فهذا كان حال سليمان - عليه السلام -{وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ} [النمل: ٢٠] وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيها وخاصة الضعفاء.

ولا شك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظيمة. إن سليمان كان مهتماً بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا راب شيء في أحوالهم، فسليمان عليه

السلام لما لم ير الهدهد بادر بالسؤال{مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ } [النمل: ٢٠] يعني " أهو غائب "؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له، ثم قال:{أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ } [النمل: ٢٠]، سؤال آخر ينم عن حزم في السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط، ولكن عن جد وشدة، إذا لم يكن الغياب بعذر.

- لابد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسيء، ويحسن للمحسن ولابد من مراعاة التدرج في تقرير العقوبة، وأن تكون على قدر الخطأ وحجم الجرم وهذا عين العدالة، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد في العقاب عند ثبوت الخطأ، بل جعله متوقفاً على حجم الخطأ{لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ} [النمل: ٢١].

وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على أن العقاب على قدر الذنب، وعلى الترقي من الشدة إلى الأشد بقدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل.

- الاهتمام بالأجهزة الأمنية، لابد للدولة المسلمة أن تهتم بالأجهزة الأمنية وتحرص أشد الحرص على الاهتمام بالأخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين، وعقيدة التوحيد، ونشر المبادئ السامية، والأهداف النبيلة، والمثل العليا، وأن تحرص على تحبيب الجهاد لأبنائها بواسطة الأجهزة الإعلامية والوسائل التربوية، وأن تهيئ النفوس للظروف المناسبة لإقامتها للدين وإعلاء لكلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام - كما قال القرطبي - رحمه الله: فإنما صار صدق الهدهد عذراً له، لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان

سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد.

- الاهتمام بنصر دعوة التوحيد، ولابد للقيادة في الدولة المسلمة أن تهتم بنصر دعوة التوحيد، وبذل الوسع في تبليغها لكل مكلف فإن سليمان عليه السلام لما استمع إلى خبر القوم المشركين، شمّر عن ساعد الجد في إيصال البلاغ إليهم، وبدأ معهم بالحجة والبيان. قال تعالى:{ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾} [النمل: ٢٨].

قال القرطبي - رحمه الله -: في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار.

ولقد كان كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ يبدأ بالرحمة وتتخلله الكرامة، وآخره الدعوة إلى الاستجابة لله والاستسلام له سبحانه{إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾} [النمل: ٣٠ - ٣١].

- الترفع على حطام الدنيا: فملكة سبأ عندما عملت الحيلة لاختبار سليمان عليه السلام، تفتق ذهنها عن بعث هدية له تمتحن بها حبه للدين، فأظهر عدم الاكتراث بهذا المال، وأعلم من جاؤوا به أن الله تعالى آتاه الدين الذي هو السعادة القصوى وأتاه من الدنيا مالاً يزيد عليه، فكيف يستمال مثله بمثل هذه الهدية، وصارحهم بأنهم هم الذين من شأنهم الفرح بتلك الهدية التي ظنوا أنه سيفرح بها أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، قال تعالى:{أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } [النمل: ٣٦].

- المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب للمكان المناسب، وعدم التردد في القرار الصعب للتغلب على الحال الأصعب، فعندما وجد سليمان عليه السلام أن القوم مازالوا على الشرك، بل يريدون استمالته وتنحيته عن صلابته في الحق قال للوفد الذي جاء بالهدية:{ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾} [النمل: ٣٧].

ولا مانع من ركوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة في إرهاب من يصد عن الدعوة فإن ذلك قد لا ينفع غيره في إنقاذ الناس من الشرك، بل من المعادن البشرية ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل، وكان هذا الأسلوب سبباً في إسلام ملكة سبأ وانقيادها وجنودها لسليمان ولا مانع من استعمال الذكاء والعقل النير، ودقة التدبير، في استجلاب قلوب المدعوين إلى الدين واستخدام نعم الله في دلالة الخلق على الله ومخاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسليمان لما بلغه خبر مجيء ملكة سبأ في جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوة حتى أن عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف يسبقها إليه.

- الاستفادة من المهارات والمواهب: وعلى الدولة المسلمة أن تستفيد من المهارات والمواهب وإمكانات الخاصة في أفراد الرعية ووضع الفرد المناسب في مكانه الصحيح، إن مملكة سليمان عليه السلام كان فيها من الإنس والجن وغيرهم ما كان يمكن أن يؤدي مهمة الهدهد، ولكن سليمان عليه السلام اختاره مع ضعفه وصغره لتأدية هذه المهمة فـ تخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف، لما عاين فيه من مخايل

العلم والحكمة.

ج – أبرز صفات سليمان – عليه السلام – كحاكم لدولة:

إن الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان - عليه السلام - كملك وحاكم ممكن له في الأرض، وفي هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى.

- الحزم: ويظهر ذلك عند القيادة إن غلب الظن أن هناك تقصيراً، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب، أو التأخر وقت العمل{لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ} [النمل: ٢١] فإنه قد تبين لسليمان عليه السلام أن الهدهد غائب، فتهدد بذلك أمام الجمع الذي يعلم أن الهدهد غائب، حتى لا يكون غيابه - إن لم يؤخذ بالحزم - سابقة سيئة لبقية الجند.

- التريث والتأني قبل الحكم، فلعل للغائب عذراً أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان بعدها:{أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ} [النمل: ٢١] أي: بحجة تبين عذره في غيبته. وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضي إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة.

- سعة الصدر في الاستماع إلى اعتذار المعتذر، وحجة المتخلف، وسليمان عليه السلام أنصت لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، على الرغم من أن فيه نوع معاتبة لسليمان، وفيه نسبة عدم الإحاطة إليه:{أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا

يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾} [النمل: ٢٢ - ٢٦]، كل هذا وسليمان لا يقاطعه، ولا يكذبه، ولا يعنفه، حتى ينتهي من سرد الحجة، التي كانت مفاجأة ضخمة لسليمان عليه السلام.

- قبول الاعتذار ممن يعتذر في الظاهر، وإيكال سريرته إلى الله، فسليمان عليه السلام سكت عن المؤاخذة وانتقل إلى تحري الخبر.

قال القرطبي - رحمه الله -: هذا دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه.

- التروي في تصديق الخبر، فهذا الذي حكاه الهدهد، أمر ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إن الهدهد لا يجرؤ على اختلاق هذه القصة، الطويلة، وهو يعلم تمكن سليمان من الرعية، ومقدرته على التأكد من صحة الأخبار، ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق، كما أنه لم يتعجل التكذيب، بل قال " سَنَنظُرُ " وهو من النظر، أو التأمل والتحري، وقوله تعالى:{أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ } [النمل: ٢٧]، يعني أصدقت في خبرك أم كذبت لتتخلص من الوعيد.

- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، وإسناد الفضل إلى الله في كل نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم، وسليمان عليه السلام لما طلب الإتيان بعرش بلقيس أجابته جنوده التي سخرها

الله له مسارعين إلى الطاعة، فلما وجد سليمان طلبه مجاباً، وأمره مطاع سارع إلى ضبط النفس في سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين:{فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ} [النمل: ٤٠] أي: رأى العرش ثابتاً عنده قال:{هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي} [النمل: ٤٠] أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها، فإن من شكر لا يرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد، ومن كفر النعم فإن الله غني عن شكره، كريم في عدم منع تفضله عنه.

- التواضع وهو في قمة المجد وللتمكين: كان سليمان عليه السلام دائم التواضع حتى قيل: إنه كان يمشي منكسر الرأس خشوعاً لله وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطير مر على واد النمل، وفي نظرة التواضع إلى الأرض أبصر نملة، فأشخص النظر صوابها، وأصاخ السمع إليها، وبما علم من منطق الطير والحيوان حاول تفهم أمرها. لقد علم أنها تتخوف من بطش أقدام الجنود في ركب سليمان، لقد سمعها وفهم قولها:{قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: ١٨]. نعم إنها كائن صغير في مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق، وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك العادل، حتى لا تقع مظلمة غير مقصودة من أحد منهم، قال القرطبي - رحمه الله -: التفاتة مؤمن. أي: من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لا يحطمون نملة، فما فوقها إلا بألا يشعروا.

إن هذه النملة لم تكن إلا واحدة من رعايا سليمان في مملكته التي ضمت إلى جانب الإنس والجن أنواعاً وألواناً من الحيوان والطير والهوام.

لقد سمع كلامها، وتفهم شكواها، فتبسم من قولها، فرقّ قلبه الكبير، رفقاً لجرمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علمه منطق هذه المخلوقات حتى يتمكن من إنصافها وإيصال العدل إليها، وسُرَّ بأن عدالته وجنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التي اعتذرت عنهم مقدماً، بأنهم إن أصابوا نملة بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور.

{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ} [النمل: ١٩].

لقد أدرك سليمان عليه السلام أنه - في جنب الله - في حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشد من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه ولهذا قال:{وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [النمل: ١٩].



ثانيا: الأسباب والتوكل:

التوكل على الله سبحانه - وتعالى - لا يمنع من الأخذ بالأسباب فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتوكل عليها، فالتوكل: هو قطع النظر في الأسباب بعد تهيئة الأسباب، كما قال صلى الله عليه وسلم :(أعقلها وتوكل).

ففي جانب الأسباب يقول الله تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ} [النساء: ٧١].

- وقال تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ } [الأنفال: ٦٠].

- وقال تعالى:{ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ } [الجمعة: ١٠].

وفي جانب التوكل، قال تعالى:{وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ } [آل عمران: ١٢٢].

- وقال تعالى:{فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ} [آل عمران: ١٥٩].

- وقال تعالى:{وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ } [المائدة: ٢٣].

ولقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، كما نبه صلى الله عليه وسلم على عدم تعارضها، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطانا).

في هذا الحديث الشريف حث على التوكل مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب، حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها.

إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السماوات والأرض، وله وجدت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية.

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب وأرشدنا ألا نعتمد عليها وحدها، وإنما نتوكل على الله مع الأخذ بها، وعلى المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين:

- الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها ورجاءها وخوفها، فهذا شرك يرقٌ ويغلظ وبين ذلك.

- ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا - أيضاً - قد يكون كفراً وظلما وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه، وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لا تسبق له به المشيئة الإلهية، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيان ما لا يرى النجاة والفرج والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تحصل له فلاحاً ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها تجريداً للتوكل واعتماداً على الله

وحده.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، حيث يقول: (**أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**).

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز وهو نوعان:

- تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها.

- وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية.

1 – القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين:

إن القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين، وهذا من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره، فإن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها فهو غالط.

2 – التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب:

الأصل أن يستعمل العبد الأسباب التي بينها الله تعالى لعباده وأذن فيها، وهو يعتقد أن المسبب هو الله سبحانه وتعالى، وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله عز وجل، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السبب، فتكون ثقته بالله واعتماده عليه في

إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب.

وبالتتبع لما قاله العلماء في التوازن بين المقامين نجد أن جمهورهم يقررون أن التوكل يحصل بأن يثق المؤمن بوعد الله، ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه؛ من مطعم ومشرب، وتحرز من عدو بإعداد السلاح، وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى سبب قدح في توكله، وفي القصص القرآني ما يجلّي هذا التوازن أيما تجلية، ويبين كيفية مفهوم هذين المقامين وتطبيقهما على أرض الواقع وعلى الوجه الذي تقتضيه العقيدة الصحيحة مثل:

أ – قصة يعقوب – عليه السلام – مع أبنائه عند وصيته لهم قبل دخولهم مصر؛ لجلب ما يحتاجونه من طعام، ومواد غذائية، حين أصاب بلدهم الجدب والقحط، فقد وصّاهم: قال تعالى على لسانه: {وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف: ٦٧].

فيعقوب - عليه السلام - ضرب لنا المثل في كيفية الأخذ بالأسباب في نطاق التوكل على الله إذ في قوله:{لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ} [يوسف: ٦٧] تدبير وتشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، ولكنه استدرك ذلك مبيناً لهم أن الأخذ بالأسباب هنا ليس هو بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى، وهرب منه إليه.

فقال:{وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ } [يوسف: ٦٧] أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنياً غناءً مبتدئاً من عند الله، بل هو الأدب والوقوف عندما أمر الله، فإن صادق ما قدّره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدّره حصلت فائدة امتثال أوامره، واقتناع النفس بعدم التفريط.

وقد أراد يعقوب عليه السلام بهذا أن يعلّم أبناءه الاعتماد على توفيق الله ولطفه، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدباً مع واضع الأسباب، ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها، وهذا سر مسألة القدر، كما أشار إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم :(اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

وبهذا يثبت أن الأسباب لابد لها من سياج قوي من التوكل، تدور في فلكه، ولا تخرج عن حقيقته، ليكون ذلك أدعى لتحقيق المراد، وأجدر لامتثال أمر الله؛ وذلك لأن الأسباب العادية لما لم تكن غير مستقلة في تأثيرها، ولا غنية في ذاتها، مفتقرة إلى ما وراءها - كان من الواجب على من يتوسل إليها في مقاصده الحيوية أن يتوكل مع التوسل إليها على سبب وراءها، ليتم لها التأثير، ويكون ذلك منه جريّا في سبيل الرشد والصواب، ويكون ذلك بالتوكل على الله سبحانه في الأمور كلها، فإن الله لا إله إلا هو، رب كل شيء، وهذا هو الله سبحانه وحده لا شريك له، فإن الله لا إله إلا هو رب كل شيء، وهذا هو المستفاد من الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى:{وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ } [إبراهيم: ١٢].

لقد مدح الله تعالى هنا يعقوب - عليه السلام - فقال تعالى:{وَإِنَّهُۥ لَذُو

عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٦٨]؛ لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها، وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه، وهو حقيقة التوحيد فقال:{وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [يوسف: ٦٧]، فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين.

ج – قصة مريم عليها السلام: وهي - كما وردت في القرآن الكريم - تبين لنا بوضوح بالغ أنه لا اختلاف ولا تباين بين مقامي الأخذ بالأسباب والتوكل، إذ كلٌّ له ملابساته وظروفه التي ترجع مقاماً على آخر في بعض الأوقات والأحوال.

كانت مريم في بداية حياتها يأتيها رزقها من غير تكسب؛ كما قال تعالى:{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٣٧]، فلما ولدت أُمرت بهزّ الجذع، قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النّصَب، فلما ولدت عيسى عليه السلام وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده.

س – السنة النبوية: فعلى مستوى السنة الفعلية ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ظاهر في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة في الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وأدّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، ومع كل ذلك لا يظن برسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه مال إلى شيء من الأسباب مقدار طرفة عين.

والمثال النبوي الفعلي لهذا التوازن - على وجه التفصيل حادث الهجرة الذي أصُطحب فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد استوفيا هما الاثنان في هذه الهجرة الأسباب المتاحة جميعها، لم يغفلا واحداً منها.

إن من تأمل حادثة الهجرة، ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدّماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدّد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأن التخطيط جزء من السنة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم، وأن الذي يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة، أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين.

فعندما حان وقت الهجرة للنبي صلى الله عليه وسلم وشرع النبي صلى الله عليه وسلم في التنفيذ، نلاحظ الآتي:

- وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعاب، وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلاً:

- جاء صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر، في وقت شدة الحرّ - الوقت الذي لا يخرج فيه أحد - بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

- إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم في أثناء مجيئه للصدّيق وجاء

إلـى بيـت الصـّدّيق متلثمـاً؛ لأن التلـثم يقلـل مـن إمكانيـة التعـرف علـى معالم الوجه المتلثم.

- أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يُخرج من عنده، ولما تكلّم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

- كان الخروج ليلاً، ومن باب خلفيّ في بيت أبي بكر.

- بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة في ذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً، مادام على خُلُق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها.

- انتقاء شخصيات لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل هؤلاء الأفراد، وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

- وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

- فكرة نوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة ناجحة، قد ضللت القوم، وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى خرج في جنح الليل تحرسه عناية الله، وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة، بمضجع الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كانوا يشكّون في أنه ما يزال نائماً مُسجّى في بردته، في حين النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

- وقد كان عمل أبطال هذه الرحلة على النحو التالي:

- عليّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم، يخدع القوم، ويُسلّم الودائع، ويلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

- عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

- أسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنود المشركين، بحثاً عن محمد صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

- عامر بن فهيرة: الرّاعي البسيط الذي قدّم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كي لا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الرّاعي يقوم بدور الإمداد، والتموين، والتّعمية.

- عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب، فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته، ومن ثم باتت عناية الله متوقعة.

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة؛ ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا

كان التوكل أمرًّا ضروريًّا وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعد كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل، ولكنه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح، وهنا يُستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار وتسيخ فرس سراقة في الأرض ويكلل العمل بالنجاح.

وأما على مستوى السنة القولية – في هذا الصدد – نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(فر من المجذوم فرارك من الأسد)، في الوقت الذي ثبت فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم. وظاهر الحديثين يدل على التنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب، إلا أنه عند التحقيق نجد أنه صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم ليبين أن الله هو الذي يمرض ويشفي، وأنه لا شيء يعدي بطبعه، نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده من أن الأمراض تعدي بطبعها من إضافة إلى الله، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم اعتقادهم ذلك، في حين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاقتراب من المجذوم، ليبين أن هذا من الأسباب التي أجرى الله تعالى العادة بأنها تقتضي إلى مسبباتها، ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت، وفي ذلك فسحة لمقام التوكل على الله، وهذا يبين أن لكل حالة مقامها التي شرعها الله عز وجل لها. ومن ذلك ما ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بقوم فقال: من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتواكلون، إنما التوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه عز وجل.

ثالثاً: الأسباب والمسببات:

إن الله تعالى قدر الأشياء بأسبابها، فالقدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً، أي أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، ومن الأدلة على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم :(إن الله خلق للجنة أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وهم بعمل أهل النار يعملون).

وفي المضمار نفسه أخبر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بأن الله كتب المقادير، فقالوا: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال صلى الله عليه وسلم :(من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيسير إلى عمل أهل الشقاوة، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة)، ثم قرأ:{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾} [الليل: ٥ - ١٠].

وفي هذا الحديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره.

فالنبي صلى الله عليه وسلم أرشد الأمة في هذا الحديث في شأن القدر إلى أمرين هما سبب السعادة: الإيمان بالأقدار؛ إذ هو نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى غيره وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر.

فلا منافاة بين الأخذ بالأسباب والإيمان بالقضاء والقدر، فمن القضاء

رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى ألاّ يحمل السلاح، وقد قال تعالى:{خُذُواْ حِذْرَكُمْ} [النساء: ٧١]، وألاّ يسقي الأرض بعد بث البذور، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسببه، والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته.

ولبيان ارتباط الأخذ بالأسباب وتناسقه مع الإيمان والقدر وفق الحكمة الإلهية يقول الرازي عن تفسير قوله تعالى:{خُذُواْ حِذْرَكُمْ} [النساء: ٧١] إنه لما كان الكل لقدر كان الأمر بالحذر أيضاً داخلاً في القدر، فكان قول القائل: أي فائدة من الحذر كلاماً متناقضاً؛ لأنه لما كان هذا الحذر مقدراً، فأي فائدة في هذا السؤال الطاعن في الحذر؟.

وحاصل تحقيق كلام الرازي: أن القدر عبارة عن جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده.

ويؤيد ذلك من السنة النبوية ما ورد أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال صلى الله عليه وسلم :(هي من قدر الله)؛

وذلك لأن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره، وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التي جعلها الله أسباباً، وهذا عام في جميع الحوادث.

إن قدر الله تعالى وقضاءه غير معلومين لنا، إلا بعد الوقوع فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفاً عن موافقة قدر الله لمأمولنا، فإن استفرغنا جهودنا وحُرمنا المأمول علمنا أن قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا، فأما ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالف لما أراد الله منا، وإعراض عما أقامنا الله فيه في هذا العالم، وهو تحريف لمعنى القدر.

إن القضاء والقدر اللذان ورد في القرآن ذكرهما - وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة - سوى النظام العام الذي خلق الله عليه الكون وربط فيه بين الأسباب والمسببات، وبين النتائج والمقدمات سنة كونية دائمة، لا تتخلف، والحاصل أن الإسلام لا يسمح أن يضل الإنسان، أو ينحرف عن أوامر الله في عقائده ودينه، ثم يعتذر بالقضاء والقدر، ولو صح ذلك لبطلت التكاليف، وكان بعث الرسل وإنزال الكتب، ودعوة الإنسان إلى دين الله وما يجب، ووعده بالثواب لأهل الخير وبالعقاب لأهل الشر - باطلاً - لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده.

1 - تأثير السبب في المسبب:

إن الذي عليه السلف، وأتباعهم، وأئمة أهل السنة، وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر إثبات الأسباب، وأن قدرة العبد مع فعله لها

تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلق الأسباب والمسببات، والأسباب ليست مستقلة بالمسببات، بل لا بد لها من أسباب أخر تعاونها، ولها - مع ذلك - أضداد تمانعها، والمسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضة له، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته، كما يخلق سائر المخلوقات، فقدرة العبد سبب من الأسباب، وفعل العبد لا يكون بها وحدها، بل لا بد من الإرادة الجازمة مع القدرة.

ولا قال أحد من أئمة المسلمين - لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ولا مالك، ولا أبو حنيفة ولا الشافعي ولا أحمد بن حنبل، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، ولا الليث، ولا أمثال هؤلاء - إن الله يكلف العباد ما لا يطيقونه. ولا قال أحد منهم: إن قدرة العبد لا تأثير لها في فعله، أو لا تأثير لها في كسبه، ولا قال أحد منهم: إن العبد لا يكون قادراً إلا حين الفعل، وإن الاستطاعة على الفعل لا تكون إلا معه، وإن العبد لا استطاعة له على الفعل قبل أن يفعله، بل نصوصهم مستفيضة بما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات استطاعة لغير الفاعل، كقوله تعالى:{وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧].

- وقوله تعالى:{فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} [المجادلة: ٤].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين:(صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب).

والمقصود بتأثير السبب في المسبب، أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله - سبحانه وتعالى - الفعل بهذه القدرة، كما

خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حق، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً، وإلا يكون إثبات جميع الأسباب شركاً، وقد قال الحكيم الخبير:{فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ} [الأعراف: ٥٧].

- وقال تعالى:{فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} [النمل: ٦٠].

- وقال تعالى:{قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة: ١٤].

كما أن تأثير العبد في فعله يتوقف على تحقيق الشرط وانتفاء المانع، فإذا فُسّر التأثير بوجود شرط الحادث، أو سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء موانع - وكل ذلك بخلق الله تعالى - فهذا حق، وتأثير قدرة العبد في مقدورها ثابت بهذا الاعتبار، وإن فُسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثراً، بل الله وحده خالق كل شيء لا شريك له ولا ندله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

- يقول تعالى:{ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ} [فاطر: ٢].

- وقال تعالى:{ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ} [سبأ: ٢٢ - ٢٣].

- وقال تعالى:{قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ } [الزمر: ٣٨]، ونظائر هذا في القرآن كثيرة.

إن من الأسباب ما يعرفه كل إنسان بفطرته مثل الوطء سبب الولد، وإلقاء البذور سبب للزرع، والأكل سبب للشبع، وشرب الماء سبب للري ومن الأسباب ما يجادل فيه بعض الناس مثل: اتباع شرع الله سبب للسعادة في الدنيا والآخرة والخروج على هذا الشرع سبب للشقاوة في الدنيا والآخرة، والدعاء سبب لدفع المكروه، ونوال المطلوب، ومن الأسباب ما يخفى على كثير من الناس مثل أسباب الأحداث الاجتماعية، وما يصيب الأمم من عز وذل، وتقدم وتأخر، ورخاء وشدة، وهزيمة وانتصار، ونحو ذلك فهذه الأحداث لها أسبابها التي تستدعي هذه النتائج ولا يمكن تخلف هذه النتائج إذا انعقدت أسبابها، فهي كالأحداث الطبيعية من تجمد الماء وغليانه ونزول المطر فهذه أحداث لها أسبابها التي قدّرها الله، فمتى تحققت هذه الأسباب تحققت هذه الأحداث، وكل الفرق بينها وبين الأحداث الاجتماعية أن الأولى أسبابها منضبطة، ويمكن معرفة حصول أكثرها إذا عرفت أسبابها، أما الثانية أي الأحداث الاجتماعية فإن أسبابها كثيرة جداً، ومتشابكة ويصعب الجزم بوقت حصول نتائجها، وإن أمكن الجزم بحصول هذه النتائج والشرع دلنا على هذا القانون العام قانون السبب والمسبب في نصوص كثيرة، والمقصود، أن ما قدّره الله وقضاه إنما قدّره بأسباب، فمن أراد الحصول على نتيجة معينة فلابد من مباشرة السبب المفضي إليها.

وما ذهب إليه العلماء المحققون في فاعلية السبب في مسببه بإذن الله تعالى، هو ما يتفق مع ظاهر النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة، وهو المنهج الوسط، والطريق الأسدّ في إعمال النصوص كلها على وجه الجمع، دون الاقتصار على بعضها وهذا ما ذكرناه، هو

ما ذهب إليه السلف الصالح، وتلقاه أهل العلم بالقبول، ولا يخفى أن اعتناق هذا الرأي يفسح الطريق أمام القيام بأعباء خلافة الإنسان في الأرض، والتفكر في سنن الله في الخلق، وتوطئة للوقوف على أسبابها ونتائجها، ومن ثمّ التفاعل مع معطياتها بما يحقق إناطة تحمل المسؤولية بالمكلفين في الدنيا والآخرة، وهو الأمر الذي يوسع ويثري من دائرة الدراسات الاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية، وفق المنهج الإسلامي، مما يعيد لهذه الأمة شهودها الحضاري، ووسطيتها الشاملة التي ضمنها لها الشرع الشريف في قوله تعالى:{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: ١٤٣]، وبذلك تعود الأمة إلى أصولها وخيريتها:{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، وبالأحرى تتخلص من تبعيتها للثقافات الوافدة التي ترزخ تحت وطأتها إلى يومنا هذا، رغم عدم انسجامها مع معطيات الشرع وحقائق الفطرة.

2- قال صلى الله عليه وسلم :**(لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر)** وشرح هذا الحديث:

أن(العدوى): انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية يكون في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن :(جليس السوء كنافخ الكير)، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، فقوله صلى الله عليه وسلم :(عدوى) يشمل العدوى الحسية والمعنوية.

و(الطيرة): هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

و(الهامة): فسرت بتفسيرين:

الأول: داء يصيب المرضى وينتقل إلى غيره، وعلى هذا التفسير يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: طير معروف تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل، فإن هذه الهامة تأتي إلى أهله، وتنعق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون في صورة الهامة، وهي نوع من الطيور تشبه البومة أو هي البومة، تؤذي أهل القتيل بالصراخ حتى يأخذوا بثأره، وهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت قالوا: إنها تنعق به ليموت ويعتقدون قرب أجله، وهذا باطل.

و (صفر): فسر بتفاسير:

الأول: أنه شهر صفر المعروف والعرب يتشاءمون به.

الثاني: أنه داء في البطن يصيب البعير، وينتقل من بعير إلى آخر، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثالث: صفر شهر صفر، والمراد به النسيء الذي يضل به الذين كفروا، فيؤخرون تحريم شهر المحرم إلى صفر يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً.

وأرجحها أن المراد صفر حيث كانوا يتشاءمون به في الجاهلية، والأزمنة لا دخل لها في التأثير، وفي تقدير الله عز وجل فهو كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، فهذه الأربعة التي نفاها الرسول صلى الله عليه وسلم تدل على وجوب التوكل على الله، وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأمور، والنفي في هذه الأربعة ليس نفياً للوجود؛ لأنها موجودة ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله فما كان منها سبباً معلوماً فهو سبب صحيح، وما كان منها

سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه ولسببيته، فالعدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله صلى الله عليه وسلم :(**لا يورد ممرض على مصح**). أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى وقوله صلى الله عليه وسلم :(فر من المجذوم فرارك من الأسد)، الجذام: مرض خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه، فالأمر بالفرار حتى لا تقع العدوى، وفيه إثبات العدوى لتأثيرها، لكن تأثيرها ليس أمرًا حتميًا بحيث تكون علة فاعلة، ولكن أمر النبي صلى الله عليه وسلم الفرار من المجذوم وألاّ يورد ممرض على مصح، من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، قال تعالى:{وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥]، ويقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى، فإن قيل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال:(لا عدوى)، قال رجل: يا رسول الله، أرأيت الإبل تكون في الرمال مثل الضبا فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :(فمن أعدى الأول)، فالنبي صلى الله عليه وسلم أشار بقوله:(فمن أعدى الأول) إلى أن المرض انتقل من المريضة إلى هذه الصحيحات بتدبير الله عز وجل، فالمرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عز وجل، والشيء قد يكون له سبب معلوم، وقد لا يكون له سبب معلوم، وجرب الأول ليس معلوماً إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم ولو شاء الله تعالى ما جرب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية قد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون، فالإنسان يعتمد

على الله ويتوكل عليه وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه رجل مجذوم فأخذ بيده وقال له(كل) أي من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول صلى الله عليه وسلم لقوة توكله صلى الله عليه وسلم، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي، وهذا الجمع الذي ذكرنا أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث، وإذا أمكن الجمع وجب؛ لأن فيه إعمال الدليلين.

3- الجزاء الأخروي والأسباب:

لم يقتصر قانون السببية على إقامة الكون وتسييره فحسب ولا على الثواب والعقاب الدنيوي وحده، وإنما تجاوز ذلك ليكون الأصل أيضاً في الثواب والعقاب الأخروي، وذلك من كمال العدل الرباني والحكمة البالغة، والأصل في ذلك قوله تعالى:{مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾} [النساء: ١٤٧]، فهذه الآية دالة على اعتبار سنة الأسباب حتى في الجزاء الأخروي؛ إذ لا عذاب إلا بكفران، فإذا انتفى السبب - وهو الكفر سواء الاعتقادي أو العملي - فلا عذاب بل هو نعيم ودخول في معية المؤمنين كما دلت على ذلك الآيات السابقة لهذه الآية، وهي التي بيّنت طريق الخلاص للمنافقين من نفاقهم وسبيل قبول الله أعمالهم، فقالت بعد توعد المنافقين بالدرك الأسفل من النار:{إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾} [النساء: ١٤٦].

والآيات في اعتبار الأسباب في الجزاء الأخروي كثيرة، ومنها على سبيل المثال:

- قولــه تعــالى:{كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾} [الحاقة: ٢٤].

- وقوله تعالى:{كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾} [الطور: ١٩].

- وقولــه تعــالى:{ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ} [آل عمران: ١٨١ - ١٨٢].

- وقولــه تعــالى:{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾} [النبأ: ٢٤ - ٢٦].

- وقوله تعالى:{فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾} [التوبة: ٩٥].

4- الحث على طلب الأسباب في الأمور المكفولة:

ترشدنا الآيات القرآنية إلى أن الأمر الشرعي قائم على حث الخلق على الأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي كفلها الله له بموجب فضله وكرمه، ومن شواهد ذلك قوله تعالى:{هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾} [الملك: ١٥].

فقد تكفل الله برزق مخلوقاته بدليل قوله تعالى:{۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦].

- وقال تعالى:{وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾} [الذاريات: ٢٢].

- وقال تعالى:{ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ } [العنكبوت: ٦٠]. ولكنه سبحانه جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب والسعي والكسب في الحياة

ومع تقدير الله للعبد في الرزق، فيجب عليه طرق الأسباب في طلب

الرزق، وهذا لا ينافي التوكل، وزيادة الرزق جعل الله لها أسباباً منها:

أ – صلة الرحم: قال صلى الله عليه وسلم :(من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه).

ب – تقوى الله: قال تعالى:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ} [الطلاق: ٢ - ٣].

وكذلك اجتناب البغي، وظلم العباد، والرياء، وأكل مال اليتيم.

وكذلك الأسباب الطبيعية والمادية، كالسعي للرزق وبذل الجهد، واختيار الأزمان المناسبة، وحسن اختيار المكاسب النافعة ونحو ذلك، وهذه الأسباب والمسببات كلها بقدر الله تعالى ومشيئته.

وما أجمل ما قاله عمر بن الخطاب لبعض الناس في زمنه عندما قال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما يرزق الله تعالى بعضهم من بعض، أما قرأتم قول الله تعالى:{ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ } [الجمعة: ١٠].

5 – مراعاة صورة الأسباب في الخوارق:

إذا كان الأصل في السنن الجارية هو تعلق المسببات بأسبابها، وارتباط النتائج بمقدماتها، فإن الأصل لا يتغير في السنن الخارقة المبنية على خرق العادة والأسباب، وعدم التغيير فيها يتمثل في مراعاة صورة الأسباب في تلك الخوارق ليظل قانون السببية عالقاً بذهن المكلف، ومرتبطاً بإقامة الكون وحركة الحياة، والقرآن الكريم

زاخراً بالآيات التي يمكن الاستدلال بها في هذا الصدر، ومنها:

- قوله تعالى:{فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [البقرة: ٦٠]. - وفي الكلام حذف تقديره: فضرب فانفجرت.

قال القرطبي: وقد كان الله تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب، ولكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد؛ وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في الميعاد.

6 – تهيئة الأسباب لوقوع مراد الله:

إذا أراد الله - عز وجل - وقوع شيء في هذا الوجود هيأ له أسبابه التي يقع بها؛ وذلك لأنه جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن، وقوانين لا تنخرم إلا بمشيئته عز وجل، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب - حقيقة - في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل: إذا أراد الله أمراً يسّر أسبابه، ومن التطبيقات الواضحة لهذا العنوان في القرآن الكريم ما جاء في حيثيات غزوة بدر وملابساتها، حيث هيأ الله تعالى أسباب النصر للمسلمين في هذا اليوم،، ولم يجعل نصرهم - في ظاهر الأمر - من قبيل الخوارق المحضة التي ليس للسبب فيها نصيب، خاصة في مثل هذا الموقف الشديد الذي عانى فيه المسلمون من قلة العدد والعتاد، كل ذلك ليتبين للمسلمين قبل غيرهم أن السنن الإلهية والقوانين الربانية التي قام عليها نظام الكون لا تتخلف عادة، وقد تجلت هذه الأسباب، وظهرت فيما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر:{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم

بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ } [الأنفال: ١١].

فإن إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر؛ لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب.

7- الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع:

فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط، وانتفاء الموانع ولابد من تمام الشروط وزوال الموانع - أي في إنتاج الأسباب - وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه، بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولابد أيضاً من صرف المواقع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى.

- قال تعالى:{أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ} [الواقعة: ٦٣ - ٦٤] أي: إذا كانت منكم الحراثة والبذر - مع إعانتنا لكم على ذلك - فإن إتمام الزرع والإثمار وتوفير الشروط وإزالة الموانع من شأننا نحن، ويؤكد ذلك قوله تعالى:{أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾} [النمل: ٦٠].

فقد ذكر إنزال الماء؛ لأنه من جملة ما خلق الله، ولقطع شبهة أن

يقولوا: إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغتراراً بالسبب فبودر بالتأكيد بأن الله خلق الأسباب وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب، وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب، فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف الزرع والشجر، أو يقتلهما، ولذلك جمع بين " وَأَنزَلَ " وقوله: " فَأَنبَتْنَا " تنبيهاً على إزالة الشبهة.

8- إنكار قانون السببية يؤدي إلى ابطال حقائق العلوم:

لقد ثبت بنص القرآن أن: الأسباب الشرعية هي محل حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهي في اقتضائها لمسبّباتها قدراً، فهذا شرع الرب وذلك قدره، وهما خلقه وأمره، والله له الخلق والأمر، ولا تبديل لخلق الله، ولا تغيير لحكمه، فكما لا يخالف سبحانه بالأسباب القدرية أحكامها، بل يجريها على أسبابها وما خُلقتُ له، فهكذا الأسباب الشرعية لا يخرجها عن سببها وما شُرعت له، بل هذه سنته شرعاً وأمراً، وتلك سنته قضاء وقدراً، وسنته القدرية قال تعالى:{فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا} [فاطر: ٤٣].

فالمسببات مرتبطة بأسبابها شرعاً وقدراً، ولذلك فطلبها من غير أسبابها مذموم، كما أن إنكار الأسباب لأن تكون موصلة لها بأنها أمر مردود، بل أن النتائج المترتبة على إنكار قانون النسبية كافية لهدم حقائق العلوم كلها، فإن العلوم جميعها تستند إلى هذا، القانون.

ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، وهو طعن في الشرع أيضاً فالله تعالى يقول:{وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا} [البقرة: ١٦٤].

- وقال تعالى:{ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ } [المائدة: ١٦].

والحاصل أنه قد ثبت بالقطع أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة:{إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾} [القمر: ٤٩].

- وقال تعالى:{وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢].

- وقال تعالى:{فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [النساء: ١٩].

- وقال تعالى:{وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٢١٦].

والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة التي تنشئ الآثار والنتائج وتهيئ الظروف لتحققها، كما تنشئ الأسباب والمقدمات{لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا } [الطلاق: ١]،{وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ } [الإنسان: ٣٠].

والمؤمن يأخذ بالأسباب؛ لأنه مأمور بالأخذ بها والله هو الذي يُقدّر آثارها ونتائجها، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين، والنجاة من الوساوس والهواجس:{ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾} [البقرة: ٢٦٨].

9- منازعة الأقدار بالأقدار:

من الأصول القطعية مباشرة الأسباب، وعلى هذا، فإن تركها قدح في الشرع مما يدحض ادعاءات الجهال والمغرضين، ونزيد هنا فنقول: إن صاحب الإيمان بالقدر ينازع القدر بالقدر، بمعنى أن لا يستسلم للقدر مادام له دافع أو رافع أو مانع، فيأخذ من الأسباب ما يحقق ذلك، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، وما قاله هذا الشيخ الجليل العارف بالله حق، ويريد بقوله رحمه الله تعالى: أنه يدافع المقدور مادام في مدافعته مجال مستعيناً بالله تعالى مبتغياً وجهه، وتفصيل ذلك أن المسلم مطالب بأخذ الوقاية من المحذور؛ لئلا يقع، ورفعه ودفعه إذا وقع، فمن الأول أخذ الحمية لئلا يقع المرض والابتعاد عن محل الوباء لئلا يصاب به الإنسان، والتحصن وراء الجدر والحصون في الحروب وقاية من العدو.

وليس في هذه الوقاية ومباشرة أسبابها مناقضة للإيمان بالقدر، وإنما أخذ بقدر لمنع قدر، والقدر مادام مجهولاً عندنا وهو محتمل الوقوع فنحن نباشر أسباب عدم وقوعه، فإن كان مكتوباً عند الله وقوعه لم يتيسر لنا مباشرة أسباب دفعه، أو تتيسر لنا هذه الأسباب، ولكن لا تؤدي نتيجتها إلى وجود مانع يمنع من إفضائها إلى مسببها، والمقصود هنا: أن مباشرة الأسباب لمنع وقوع ما يحتمل وقوعه من الأقدار ليس فيه مناقضة للمعنى الصحيح للقدر وإنما هو أخذ بقدر لمنع قدر، لأن السبب والمسبب بقدر الله تعالى جاء في الحديث الشريف: قيل يا رسول الله: أرأيت أدوية نتدوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال:(هي من قدر الله)،

فإذا كان من قدر الله ألاّ يصاب الإنسان بالمرض قدّر الله له مباشرة ما يدفع به وقوع المرض، وعندما وصل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مشارف الشام، وعلم بنزول الطاعون فيهم وهمّ بالرجوع قال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرار من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: لو كان غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ونقع في قدر الله، ثم قال عمر رضي الله عنه ما معناه: لو كان عندك غنم أو إبل وأمامك أرض مجدبة وأخرى مخصبة فإذا نزلت بالمجدبة أو المخصبة أو تحولت من المجدبة إلى المخصبة، فكل ذلك بقدر الله.

ومن النوع الثاني من منازعة الأقدار بالأقدار مباشرة الأسباب الرافعة للقدر بعد وقوعه كتناول الدواء لرفع المرض، وطرد الأعداء والكفرة من ديار المسلمين بعد تسلطهم بإعداد العدة لذلك ثم قتالهم، ومثاله أيضاً انحباس المطر يرفع بالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفاره، كما هو معروف في الفقه في باب صلاة الاستسقاء، وكما دل عليه قوله تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام وما قاله لقومه، قال تعالى:{فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾} [نوح: ١٠ - ١١].

فالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفاره من أهم الأسباب لدفع المكروه، ورفعه بعد وقوعه، ومنعه من الوقوع قبل أن يقع، وهذه معاني يفقهها أهل الإيمان، لا أهل الكفر والجهالة والعصيان.



رابعاً: الدعاء والقدر:

الدعاء مثل سائر الأسباب، كالتوكل والصدقة... سبب لجلب المنافع ودفع المضار، ثم الدعاء - مع ثبوت كونه سبباً - داخل في القضاء، ولا خرج عن القضاء، فإن الدعاء من جملة ما سبق به القضاء؛ لأن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً، وقدر كل شيء تقديراً، ولا يمكن أن يخرج شيء عن قضائه، فلهذا الدعاء نفسه داخل القضاء، إذا قدر الدعاء وأنه سبب لكذا، فلا بد أن يدعو الرجل، وأن يتسبب ذلك فيما جعله الله سبباً، فالدعاء سبب لجلب النفع، كما أنه سبب لدفع البلاء، فإذا أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب؛ ولهذا أمر صلى الله عليه وسلم عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة، والدعاء، والذكر، والاستغفار والتوبة، والإحسان بالصدقة والعتاقة، فإن هذه الأعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه، كما في الحديث: (إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان)، وهذا كما لو جاء عدو فإنه يدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهاد له، وإذا هجم البرد يدفع باتخاذ الدفء، فكذلك الأعمال الصالحة والدعاء. ويدل على دفاع العدو بالدعاء مع الجهاد قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: (هل تنصرون إلا بضعفائكم)، ولفظ النسائي: (إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم)، والحاصل: من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء داخل تحت القضاء وليس خارجاً عنه.

1 - دلالة القرآن الكريم على ذلك:

- قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠].

- وقال تعالى:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦].

- وقال تعالى:{وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: ٣٢].

إن الله - سبحانه وتعالى - نهى في هذه الآية عن الحسد، وتمني زوال نعمة الغير، وأمر بسؤاله من فضله، فدل على أنه بسبب السؤال يعطي مثلما أعطى لذلك الذي فضله، وربما يعطي أكثر، فلو كان الدعاء والسؤال لا أثر له في إعطاء السائل ما تمناه وسأله، لزم أنه لا فائدة في الأمر به في هذا المقام، وهذا يخالف ما يقتضيه سياق الآية.

وقد وردت آيات كثيرة جداً، ذكر الله فيها ما وقع لأنبيائه، وأوليائه، وعباده الصالحين من المحن والبلايا، والشدائد العظام، فاستغاثوا بربهم وتضرعوا له، وابتهلوا إليه، فاستجاب الله لهم، وكشف عنهم تلك المحن، بعد دعائهم، وقد حكى الله لنا ألفاظ دعواتهم، وصيغ ابتهالاتهم؛ لنقتدي بها، ونأخذ العبر والدروس، ومن تلك الدروس التي نأخذها تأثير الدعاء وفائدته العظيمة في جلب المنافع ودفع المضار، وأنه سمة العبودية، وأنه الغذاء الروحي لاسيما عند نزول الشدائد المدلهمة، ومن ذلك

أ – مما حكى الله لنا عن نوح – عليه السلام – مما يدل على تأثير الدعاء:

- قال تعالى:{ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾} [الصافات: ٧٥]، ما أصرحها في تأثير الدعاء، وأوضحها وأبينها من حجة قاطعة، وما

أبلغها من برهان ساطع، ومثلها قوله تعالى في قصة نوح أيضاً:{وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾} [الأنبياء: ٧٦ - ٧٧].

ب – دعاء أيوب – عليه السلام:

- قال تعالى:{ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾} [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤]، تدل الآيتان على المقصود من عدة أوجه، منها العطف بالفاء السببية في الموضعين:{فَٱسْتَجَبْنَا}،{فَكَشَفْنَا} ودلالة فاستجبنا وكشفنا اللغوية ودلالة السياق هذه الدلالات الواضحة على تأثير الدعاء.

جـ – دعاء يونس – عليه السلام –:

قال تعالى:{ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

فدلتّ الآيتان على أن الدعاء هو السبب في نجاته من عدة أوجه: منها إلغاء السببية، ومنها كلمتا: (استجبنا) و(نجينا) كما دلت على أن هذا ليس خاصاً به، بل المؤمنون عامة إذا وقعوا في شدة واستغاثوا بربهم فهو ينجيهم، كما دلت أيضاً على أنه لولا الدعاء لما نجا من هذا الكرب العظيم، ولبقي في بطن الحوت، وقد صرحت بذلك آية أخرى قال تعالى:{فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ

يُبۡعَثُونَ } [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

فكلمة لولا في مثل هذا الموضع تدل على امتناع الجملة الثانية لوجود الأولى، وهذا صريح قاطع في أن الدعاء هو السبب في نجاته ولو لم يحصل الدعاء لما نجا ولبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة.

ج - دعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى:{وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾} [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

ففي هذا ترتيب للاستجابة على النداء، كما أن فيه تعليلاً للاستجابة بكونهم مسارعين في الخيرات، وداعين الله رغبة ورهبة.

خ - في قصة موسى وهارون في استغاثتهما بالله:

قال تعالى:{ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا } [يونس: ٨٨ - ٨٩]، فصرحت الآيتان بإجابة دعوتهما واستغاثتهما بالله تعالى وأن ذلك عقب ابتهالهما إلى الله تعالى فدل هذا على ترتيب الإجابة على الدعاء ترتب المسبب على السبب وفي قوله تعالى في قصة تضرع موسى وابتهاله إلى الله قال تعالى:{قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾} [طه: ٢٥ - ٢٦] إلى أن أجابه الله بقوله:{قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾} [طه: ٣٦]، ما أوضحها في الدلالة على تأثير الدعاء في الإجابة.

س – دعاء المؤمنين من الأمم السابقة:

- قال تعالى:{وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ} [البقرة: ٢٥٠ - ٢٥١].

- وقال أيضاً:{وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾} [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

2- دلالة الفطرة على تأثير الدعاء بإذن الله:

قال تعالى:{أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾} [النمل: ٦٢].

فالآية صريحة الدلالة على أن دعاء المضطر هو السبب في إجابة سؤاله وكشف السوء عنه، وهذا من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والألوهية ولهذا أعقبه بقوله:{أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢].

الإنسان من طبيعته إذا وقع في شدة وضيق عليه تحركت فطرته ومشاعره، واتجه إلى الله، ونسى ما كان يدعو من قبل، وهنا يوقن أنه لا منقذ إلا الله، وتتكشف عنه الحجب، ويزول الرين، وتذهب الغشاوة، وينطرح بين يدي الله، منكسراً متواضعاً، مبتهلاً متضرعاً باكياً، ويجأر إلى الله كاشف السوء، مجيب المضطرين، غياث المغيثين، منقذ الهالكين، وجابر المنكسرين، ومنقذ الغرقى، وسامع النجوى، فكم من ملحد نزلت به ضائقة آب إلى الله، وكم من شارد فاسق وقع في مأزق تاب إلى الله ورجع إلى طاعته، فالفطرة خير شاهد، وأقوى دليل،

وأنصع برهان، وأوضح حجة؛ لأنها لا تحتاج إلى تركيب مقدمة، وإقامة أدلة جدلية واستنتاج، ودليلها لا يمكن مقاومته، ولا دفعه بالشبهات والوساوس، ألا ترى الإنسان إذا ما وقع في معصية يتجه مباشرة إلى السماء ويرفع يديه قائلاً: يا رب يا رب، وهذه الحالة تهجم عليه، وتسيطر على تفكيره وشعوره، وتجعله يشعر أنه لا منقذ ولا منجي ولا مغيث إلا الله سبحانه وتعالى، فلو لم تدل الفطرة على تأثير الدعاء لما اتجهت إلى الدعاء، ولكانت تلجأ إلى وسائل أخرى للاستغاثة والاستعانة.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان هذه في عدة آيات منها:

- قوله تعالى:{ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ } [يونس: ١٢].

- وقال سبحانه:{وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ } [الزمر: ٨].

- وقال تعالى:{ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾} [فصلت: ٥١].

- وقال تعالى:{ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾} [النحل: ٥٣].

- وقال تعالى:{هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾} [يونس: ٢٢].

- وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)} [الإسراء: ٦٧].

- وقال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)} [لقمان: ٣٢].

فالإنسان في مثل هذه الشدائد ينسى تلك الأشياء التي كان يتعلق بها ويرجع إلى ربه، فتحصل له معرفة قوية من أقوى ما تكون المعارف، فإن المعارف التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرارية أثبت وأرسخ من المعارف التي ينتجها مجرد النظر القياسي الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال.

3- دلالة السنة النبوية على تأثير الدعاء:

وأما السنة الدالة على تأثير الدعاء، فأكثر من أن تحصر، فقد تواتر عنه صلى الله عليه وسلم أمران: الأول: فعله للدعاء. والثاني: حثه صلى الله عليه وسلم وترغيبه في الدعاء، ومن الأدلة ما يلي:

أ- حديث أنس بن مالك: قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله، هلك الكراع، وهلك الشاء، وفي رواية وجاع العيال، وفي رواية أخرى: هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله أن يسقينا فمد يديه ودعا، وفي رواية: وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة، ثم جاء ذلك الرجل، أو غيره في الجمعة المقبلة فقال: تهدمت البيوت، وانقطعت

السبل فادع الله يمسكها، فرفع يديه فقال:(اللهم حوالينا ولا علينا)، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت.

ب – حديث النزول، وهو حديث مشهور متواتر، ومن طرقه، ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(يتزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟).

إن المشاهدة لتأثير الدعاء لمن أكبر الأدلة وأصدقها برهاناً وأقواها حجة، فنحن رأينا وشاهدنا في أنفسنا ومن حولنا تأثير الدعاء، فمن منا لا يقع في شدة وكرب وضيق، ثم يستغيث بربه فلا يرى أثر ذلك؟ فنحن نشاهد في حياتنا، وأيامنا القصيرة وقائع لنا ولغيرنا يحصل فيها إجابة الدعاء بعد يأس وقنوط من المخلوقات، وبعد انقطاع السبل والحيل فهذا يكفي وحده للدلالة. والحق الذي لا مرية فيه أن الدعاء سبب من الأسباب، وأن له تأثيراً في جلب المنافع ودفع المضار، كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة، وأنه لا منافاة بين القدر والدعاء، فالدعاء من جملة ما سبق به القدر وتضمنه القدر السابق.

ولاشك أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي حرك العبد إلى الدعاء، ويسره له، وهو الذي قذف في قلب العبد الحركة إلى الدعاء، وألهمه التضرع والابتهال، والانطراح بين يديه، ووفقه لذلك، وصرف عنه الموانع من استكبار وكسل، وغير ذلك، فهذا الخير منه، ولولا الله لما دعا العبد.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه.

فإذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه دعاءه والاستعانة به، وجعل استعانته ودعاءه سبباً للخير الذي قضاه له.



المبحث السابع

العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل

المبحث السابع:
العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل

العدل الإلهي، وسنة الله في الجزاء بجنس العمل:

من أسماء الله الحسنى (العدل) ولم يأت هذا الاسم في القرآن الكريم، وقد جاء في حديث الأسماء الحسنى، وأجمعت عليه الأمة ومعناه:

العادل: وهو الذي يصدر منه فعل العدل، وهو المضاد للجور والظلم، وهو الذي لا يميل به الهوى، فيجور في الحكم، وإذا آمن العبد بأن الله هو العدل لم يعترض عليه في أحكامه وتدبيره وسائر أفعاله، وافق مراد العبد أو لم يوافق؛ لأن كل ذلك عدل وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي.

فالعدل كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكّن من أسباب الهداية، والطاعة، بالأسماع، والأبصار، والعقول، وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية، وأراد من نفسه أن يُعينه ويُفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخلىّ بينه وبين نفسه، ولم يُرد سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله.

وقد اتفق أهل الأرض والسماوات على أن الله تعالى (عدل) لا يظلم أحداً، حتى أعداؤه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقرّون له بالعدل، ومُنزّهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم مُعترفون بعدله، كما قال تعالى:{فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ} [الملك: ١١].

وقال تعالى:{يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ

ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾} [الأنعام: ١٣٠].

فهو سبحانه - قد حرّم الظلم على نفسه وأخبر أنه لا يُهلك: {ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ} [الأنعام: ١٣١].

فأفعال الله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلاً، فهي كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة، وما ينزل الله - سبحانه - بالعصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا، وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب، ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة، وأقواله كلها عدل، فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهاهم إلا عمّا مضرته خالصة أو راجحة، وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ووزنه لأعمالهم لا جور فيه، كما قال تعالى:{وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾} [الأنبياء: ٤٧]، فهو على صراط مستقيم في قوله، وفعله وحكمه.

وقال صلى الله عليه وسلم :(عدل فِيّ قضاؤك). فالله عدل في جميع أقضيته في عبده، قضائه السابق فيه قبل إيجاده، وقضائه فيه المقارن لحياته، وقضائه فيه بعد مماته، وقضائه فيه يوم معاده.

وقال الله - على لسان نبيه هود عليه السلام:{ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾} [هود: ٥٦].

فأخبر عن عموم قدرته، ونفوذ مشيئته، وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف، والحكم على صراط مستقيم.

فالله يأمر بالعدل ويفعله، وهو أعدل العادلين، فما قضى في عبده قضاء إلا هو واقع في محله الذي لا يليق به غيره؛ إذ هو الحكم العدل الغني الحميد.

فالله وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل، فالشرع والقدر والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم بالعدل{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } [الأنعام: ١١٥].

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها، وإنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وإنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقاً.

والله يفعل ما يريد، وحكمه ماض في العبيد، على النهج السديد.

{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف: ٤٩]. وهذا الكمال عدل، فإن النفي هنا لإثبات كمال الضد.

- قال تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [النساء: ٤٠].

- وقال تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا } [يونس: ٤٤].

- وقال تعالى:{ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾} [هود: ١٠٠ - ١٠٢].

وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم :(إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم :{وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾} [هود: ١٠٢].

- وقال تعالى:{وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾} [الكهف: ٥٩].

- وقال تعالى في شأن أصحاب السبت:{فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ} [الأعراف: ١٦٥].

- فالله لا يظلم الناس شيئاً في دنياهم، وإنما يؤاخذهم بظلمهم، ولا يظلمهم في الآخرة.

- قال تعالى:{ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾} [يس: ٥٤].

- وقال تعالى في آخر آية نزلت قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بتسع ليال:{ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨١].

وقال صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال:(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا).

وعلى مستوى المعاملات بين الناس جاء الأمر الإلهي بتحري العدل، قال تعالى:{ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ} [النحل: ٩٠].

فالنصوص التي ذكرت في القرآن والسنة للدلالة على تحريم الظلم

وتنزيه الله عنه، تقتضي كمال عدله وحكمته وغناه، ووضعه العقوبة والثواب مواضعها.

قال الشاعر:

والعـــدل مـــن أوصـــافه في فعلـــه ::: ومقالـــــه والحكـــــم في الميـــــزان
فعلـــى الصـــراط المســـتقيم إلهنـــا ::: قـــولا وفعـــلاً ذاك في القـــرآن

ومن أكبر مظاهر عدل الله في خلقه في الدنيا والآخرة سنة الجزاء بجنس العمل، وقد تكاثرت النصوص لهذا المعنى، وهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه، كله قائم بهذا الأصل.



أولا: الأصل في العقاب المماثلة:

إن الوعيد والعقاب الإلهي مبني على العدل الإلهي، بحيث تكون العقوبة مكافئة للذنب الواقع ولذلك يصرّح القرآن بقوله:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا } [الشورى: ٤٠].

- وقال تعالى:{وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ } [البقرة: ١٩٤].

- وقال تعالى:{وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ} [النحل: ١٢٦]، بل قد يتجاوز الله بمشيئته عمن أساء يقول سبحانه:{ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾} [الشورى: ٣٠]، ويحرّض الله الناس على الصفح عمن ظلمهم، أو أساء إليهم، فهو يسرّع لهم القصاص والمعاملة بالمثل، ولكنه في الوقت يدعو إلى العفو والصفح ويوكل أجر فاعلهما عليه سبحانه؛ زيادة في الإغراء وحثاً على التسامح، فيقول تعالى:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ} [الشورى: ٤٠].

- وقال تعالى:{وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾} [النحل: ١٢٦].

والحاصل أن عقاب الله العبد يكون على قدر ذنبه وما ارتكبه؛ ولذلك ألمحت بعض الآيات بأن جزاء العقوبة هو ما كان يقترفه العبد، قال تعالى:{هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ } [الأعراف: ١٤٧].

وبلفظ الخطاب ورد قوله تعالى:{هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ } [النمل: ٩٠].

- وقوله:{وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾} [الصافات: ٣٩].

وأما في جانب الوعد والثواب فيعامل الله عباده بالفضل والزيادة، وإن كانت من جنس العمل الذي فعله العبد، يقول تعالى:{وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾} [محمد: ١٧].

- وقال تعالى:{لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ} [إبراهيم: ٧].

- وقال تعالى:{فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ} [النساء: ١٧٣].

والقرآن الكريم حافل بالتطبيقات المتنوعة على سنة الجزاء بجنس العمل، ولكن قبل الشروع في هذه النماذج نعرض للآيات القرآنية التي تعد حقائق أصيلة لهذه السنة، ومن الأمثلة على ذلك:

1 – قوله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم} [يونس: ٢٣].

فالمراد بالبغي هنا: ما كان على النفس خاصة بإيرادها موارد التهلكة، والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية، وقد يراد به - أيضاً - البغي على الناس، فالناس نفس واحدة، على أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العاقبة، والخطاب بـ{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ} يفيد العموم فيدخل فيه المخاطبون وغيرهم، وفي الآية ذم للبغي في أوجز لفظ، ومعنى{عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم} أي: وبال البغي عليكم ولا يجنى ثمرته إلا أنتم.

وقد دلت الآية على أن البغي يجازى صاحبه عليه في الدنيا والآخرة، فأما في الآخرة فهو ما دل عليه إنزال أهله الرجوع إلى الله، وإنباؤه إياهم بما كانوا يعملونه، وذلك في قوله تعالى في عجز الآية

نفسها:{ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس: ٢٣]، والمراد بالإنذار هنا لازمه وهو الجزاء، وأما الدنيا فالشاهد الذي ذكرناه{إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم} [يونس: ٢٣] ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم :(ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم).

يقول محمد رشيد رضا: فوجود الأعداء والمبغضين ضرب من ضروب العقوبة، وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغي لعجز، فكيف إذا قدروا وفعلوا الغالب؟ وأما بغي الملوك والحكام على الأقوام والشعوب فأهون عقوبته عداوتهم والطعن عليهم، وقد تفضي إلى اغتيال أشخاصهم، أو إلى شل عروشهم والقضاء على حكمهم، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرش، أو نوعاً من الكم بنوع آخر، وإما بإغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي، تسلبها استقلالها وتستولي على بلادها. وتلك هي عدالة الله في تحقيق قانونه في الخلق وجزائهم بجنس ما يعملون.

2 – **قال تعالى**:{ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾} [فاطر: ٤٣].

{ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ} أي: استكبروا عن اتباع آيات الله " وَمَكْرَ السَّيِّئِ "، أي: ومكروا بالناس في صدِّهم إياهم عن سبيل الله.

{وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ}، أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

فمن سنن الله ونواميسه في خلقه{وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ}.

ولهذا قيل: وما ظالم إلا سيُبلى بظالم.

وقال الشاعر:

لكــــل شـــئ آفـــة مـــن جنســـه ::: حتى الحديــد ســطا عليــه المُــبردُ

فما يصيب مكرهم السيء أحداً إلا أنفسهم، وهو يحيط بهم ويحيق، ويحبط أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينتظرون إذن؟

إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم، وهو معروف لهم، وتمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد{فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا} [فاطر: ٤٣].

3 – **قال تعالى**:{فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ} [الفتح: ١٠].

ما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله، والله هو الغني عن العالمين، وبالمقابل فإن العبد هو الخاسر حتى ينكث، وينقض عهده مع الله، فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء والأوفياء.

وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به: من مكر أو بغي، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى:{وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ} [فاطر: ٤٣]،{إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم} [يونس: ٢٣]،{فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ} [الفتح: ١٠].



ثانيا: الجزاء بجنس العمل في الدنيا:

1 – الاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا:

- قال تعالى:{ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة: ١٤ - ١٥].

- قال تعالى:{ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾} [التوبة: ٦٧].

- وقال تعالى:{ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ} [التوبة: ٧٩].

هذا من باب المقابلة على سوء ضيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من يسخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل.

2 – تسليط الظالم على مثله:

قال تعالى:{وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾} [الأنعام: ١٢٩].

وقال تعالى:{ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾} [هود: ١١٣].

وقال تعالى:{۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾}

[المائدة: ٥١].

وفي قوله:{وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا} [الأنعام: ١٢٩]: تدل الآية على أن الرعية متى كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم.

3 – استئصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه:

قال تعالى:{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾} [غافر: ٥].

وقال تعالى عن ظلم فرعون لبني إسرائيل ومحاولته إخراجهم من أرضهم:{ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا } [الإسراء: ١٠٣ - ١٠٤].

ويقرر القرآن الكريم هذه السنة في آيات أخر قال تعالى:{ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ} [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

وقال تعالى:{۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾} [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

4 – نصر الله منوط بنصرته للدين والحق:

قال تعالى:{كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ} [المجادلة: ٢١].

وقال تعالى:{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾} [غافر: ٥١].

وقال تعالى:{وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

وهذا النصر الإلهي مشروط بالإيمان ونصرة دين الله، وفي ذلك يقول الله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾} [محمد: ٧]، وقال تعالى:{وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ} [الحج: ٤٠].

5 - سلب النعمة عمن منعها مستحقها:

يبين القرآن الكريم أن عقاب الله بالمرصاد لمن منع أحداً شيئاً يستحقه، وأن سنة الله في هذا أن ينقلب مقصود المانع عليه، ويعامله الله بنقيض مقصوده، فيأخذ الله ما بين يديه من نعمة، ويسلبه ما كان سبباً في التجني على خلقه ويتركه في رماد، والشاهد على ذلك جليًّا في قصة أصحاب الجنة التي قصّها علينا القرآن للاعتبار والعظة، قال تعالى:{إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ} [القلم: ١٧ - ٢٧].

فأصحاب الجنة لما عزموا على منع الفقير حقه الذي كفله الله له عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء ثم بين الله أن حكمه هذا سنة جارية، في خلقه وقضاء عام لمن وقع في مثله{كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ} [القلم: ٣٣]

أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات.

وبالمقابل فإن الله قد ضمن لمن تعدى بخيره على غيره أن يرزقه من جنس ما أنفقه، ويزيده فيه سواء في الدنيا أو في الآخرة، فقال:{وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ} [سبأ: ٣٩].

وقال تعالى:{وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٧٢].

وفي الحديث القدسي:(أَنْفِق أُنْفِق عليك).

6 – تيسير الله لمن يسَّر على عباده:

قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ} [المجادلة: ١١].

وفي قوله:{يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ} مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان، والرزق، والصدر، والقبر، والجنة واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم، وإدخال السرور في قلبه.

ويؤكد هذا الموضع من الشاهد قول النبي صلى الله عليه وسلم :(من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره

الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه).

وفي قوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ} [المجادلة: ١١] أي: إذا قيل: ارتفعوا، وإنما يراد بذلك إذا قيل: قوموا إلى قتال عدو، أو صلاة، أو عمل خير، أو تفرقوا عن رسول الله فقوموا، فقد جعل جزاء امتثال أمره في تلك الآية أن رفع درجة أصحابها بالنصر، وحسن الذكر في الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة، خاصة العلماء منهم الذين جمعوا بين العلم والعمل، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة.

7- الجزء بجنس العمل على مستوى الوسائل:

إن أي تدبير أو فعل من العبد مهما بلغ في إتقانه ونسجه، فإن الله هو القاهر فوق عباده لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذه الغاية القصوى في استشعار العبد بالمراقبة، ومن ثم الامتثال بالعبودية.

ومن الآيات الدالة على هذه المسألة:

- قوله تعالى:{ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾} [الطور: ٤٢].

- وقال تعالى:{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾} [الطارق: ١٥ - ١٦].

- وقال تعالى عن صالح - عليه السلام - وقومه ثمود:{ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ

﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾} [النمل: ٤٨ - ٥١].

- وقال تعالى:{ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾} [آل عمران: ٥٤ - ٥٥].

- وقال تعالى:{ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾} [الأنفال: ٣٠].

وسمي جزاء المكر مكراً، وجزاء الكيد كيداً؛ تنبيهاً على أن الجزاء من جنس العمل.



ثالثاً: الجزاء بجنس العمل في الآخرة:

كما أن سنة الجزاء بجنس العمل حاكمة في معاملة الله خلقه في الحياة الدنيا، فهي كذلك في الآخرة، ومن ثم كانت سنة أساسية بين السنن، والتطبيقات القرآنية تترى في هذا المعنى، وتصل إلى حد التواتر، من حيث العدد، وإلى القطع من حيث المعنى والمراد من ذلك.

1 - معاملة أهل الفضل بالفضل:

- قال تعالى:{ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾} [الرحمن: ٦٠]، أي: هل ثواب خوف مقام الله عز وجل لمن خافه فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف في الآيات من قوله تعالى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦]، إلى قوله تعالى:{كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾} [الرحمن: ٥٨].

- وقال تعالى:{ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾} [السجدة: ١٦ - ١٧].

قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم، وأخفى الله لهم ما لم ترعين، ولم يخطر على قلب بشر.

وفي الحديث القدسي: قال تعالى:(أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر) قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم:{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧].

- وقال تعالى:{وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾} [النور: ٢٢].

- وقال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾} [التغابن: ١٤].

2 - ترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه:

قال تعالى:{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾} [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

أخبر تعالى أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً، فإن الجزاء أبداً من جنس العمل.

وقال تعالى:{ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا} [الأعراف: ٥١].

وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾} [الجاثية: ٣٢ - ٣٤].

3 - التهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهكمون بالمؤمنين في الدنيا:

قال تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ

يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ} [المطففين: ٢٩ - ٣٦].

وقال تعالى: {يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾} [الحديد: ١٣].

والشاهد في الآية قوله: {قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا} [الحديد: ١٣]، فالظاهر من إسناد {قِيلَ} بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين،

وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكماً؛ إذ لا نور وراءهم، وإنما أرادوا إطماعهم، ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين؛ لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم، ومما يؤيد أن هذا التخبط والحيرة الشديدة التي أصابت المنافقين في الآخرة هو جزاء لهم من جنس ما كانوا عليه في الدنيا؛ أنهم كانوا كذلك في الدنيا في قلق دائم وحيرة مستمرة، وتخبط متواصل؛ لأنهم كانوا {مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ} [النساء: ١٤٣].



رابعاً: الجزاء بجنس العمل بين العباد:

إن سنة الله في خلقه أن يكون جزاؤهم بجنس ما عملوه، وهذا أمر تكويني أقام الله عليه الدنيا والآخرة؛ ليكون قانوناً حاكماً في المجازاة والمحاسبة، وليس هذا فحسب، وإنما أراد الله - عز وجل - أن يكون هذا القانون وتلك السنة أمرًا شرعيًّا تكليفيًا، وقد أمر الله الناس بالتعامل به فيما بينهم، ليتحقق العدل والأمان في المجتمع بين الأفراد والجماعات والأمم، فأنزل الآيات التي توجب العمل بهذه القاعدة، وجعلها مستمرة في أبواب الشرع عامة في مسائله، وبين النبي صلى الله عليه وسلم تلك السنة بأحسن بيان وأدق تطبيق، وبهذا يتبين أن الشرع والقدر قد تظاهرا على تقرير هذه السنة، وتلك القاعدة التي هي من حكمة الله البالغة في خلقه.

قال تعالى:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا } [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى:{وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ} [النحل: ١٢٦]. وقال تعالى:{فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ } [البقرة: ١٩٤].

ومن الأمثلة في القرآن الكريم في هذا الباب ما يلي:

1 - **الآيات التي وردت في القصاص:**

قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾} [البقرة: ١٧٨ - ١٧٩].

وفي هذا المعنى أيضاً يأتي قوله تعالى عن حكم القصاص في الكتب السماوية السابقة: قال تعالى:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة: ٤٥].

وقد بينت السنة المطهرة تطبيق حد القصاص على الوجه الأكمل، وبما يحقق القاعدة التي تتحدث عنها، وبهذا يتبين لنا المصالح الجمة التي بنيت على مشروعية القصاص، وإقامته في المجتمع، ومن تلك المصالح زجر المعتدي، ومن يحاول الاعتداء ليرتدع قبل اقترافه عمله، ومنها: جبر خاطر المعتدي عليه، ومنها: التفادي من ترصد المعتدى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم، فإبطال الحكم بالقصاص يعطل هذه المصالح، ويقوض بنيان المجتمع، ويشيع الفوضى في الدولة، وينخر في قواها المتمثلة في أفرادها وطوائفها.

2 - حد الحرابة والإفساد:

وبهذا المعنى أيضاً جاء حد الحرابة والإفساد في قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا} [المائدة: ٣٣]، وهي شاهد لما نحن فيه على تفسير ابن عباس في رواية عطاء، وهو مذهب جمهور العلماء لأن كلمة{أَوْ} هنا ليست للتخيير، بل هي للتقسيم، أو بمعنى آخر: لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات، فمن اقتصر على القتل قُتل، ومن قتل وأخذ المال، قُتل وصُلب، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يديه ورجله من خلاف، ومن أخاف السبل، ولم يأخذ

المال نُفي من الأرض.

3 - من تطبيقات ذلك العصر النبوي:

ما علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كيفية مجازاة الناس بجنس أعمالهم والشاهد الصريح في ذلك ما قاله صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر - رضي الله عنه -:(ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة)، فأبو بكر - رضي الله عنه - بذل كل ما يملك - من مال ونفس وأهل وولد - لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عطاؤه بلا حدود، يستحق الجزاء من صاحب النعمة المطلقة، وولي كل منحة وجود، فرد النبي صلى الله عليه وسلم مكافأته لله عز وجل، ليتفضل على أبي بكر بالإنعام والإكرام؛ وليكون الأصل في الجزاء أن يكون من جنس العمل.

والمثال الثاني في عصر النبوة: أنه لما أُسرت ابنة حاتم الطائي في أيدي المسلمين، ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له: كان أبي يفك العاني، يحمي الذمار، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة. فقال صلى الله عليه وسلم :(خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق).

وفي رواية: فخلى سبيلها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملني، وأعطاني نفقة حتى خرجت إلى أخي عدي بالشام.

لقد عاملها الرسول صلى الله عليه وسلم بجنس ما كان أبوها يعامل الناس رغم كفر أبيها؛ ليدلنا ذلك على أن هذه القاعدة عامة، ما لم تحرم أصلاً شرعياً، أو تعارض دليلاً قطعياً.



المبحث الثامن

الحكمة والتحسين والتقبيح وتكليف ما لا يطاق وقدرة الله عزوجل

المبحث الثامن:
الحكمة والتحسين والتقبيح وتكليف ما لا يطاق وقدرة الله عز وجل

أولا: الحكمة في أفعال الله وشرعه:

1 - الله الحكيم الحكم الحاكم:

من أسماء ربنا جل وتعالى التي عرَّف بها نفسه إلى عباده، وذكرها في كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه{ٱلۡحَكِيمُ}، وقد ورد هذا الاسم{ٱلۡحَكِيمُ} أربعاً وتسعون مرة في القرآن الكريم، كما في قوله عز وجل: {ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢]،{ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]،{ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ} [الأنعام: ١٨]،{وَٰسِعًا حَكِيمًا} [النساء: ١٣٠].

وقال تعالى:{ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ} [الأنعام: ١١٤].

فهذا دليل على أن اسمه أيضاً: (الحكم)، وقد جاء في خمسة مواضع بصيغة الجميع منها:{وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ} [الأعراف: ٨٧]، و{وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ} [هود: ٤٥]، و{ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨} [التين: ٨].

و{ٱلۡحَكِيمُ}: هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها ويضعها في موضعها، كما قال سبحانه{وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ} [النمل: ٨٨]، و{ٱلۡحَكِيمُ} هو الذي يضع الشيء في موضعه بقدره، فلا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، مع ما له في ذلك من الحكم البالغة العظيمة التي لا يأتي عليها الوصف، ولا يدركها الوهم.

فالحكيم الذي لا يدخل تدبيره ولا شرعه خلل ولا زلل، وأفعاله

وأقواله تقع في مواضعها بحكمة وعدل وسداد، فلا يفعل إلا الصواب ولا يقول إلا الحق.

وأما (الحكم) فهو من له الحكم والسلطان والقدر، فلا يقع شيء إلا بإذنه وهو المدبر والمتصرِّف{كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩].

و " الحكم " أيضاً من له التشريع والتحليل والتحريم، فالحكم ما شرع الله، والدين ما أمر ونهى، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، فاجتمع في الاسم " القدر " و " الشرع "{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤].

وحين يقول: (أَحْكَمِ الحَاكِمِينَ) و (خَيْرُ الحَاكِمِينَ)، فإن ذلك تأكيد على عدله، ورحمته، ووضعه الأشياء في موضعها، فليس في قدره ظلم ولا تعسُّف، وليس في شرعه محاباة ولا تحيز، بل هو حفظ للحقوق، حقوق الحاكم والمحكوم، والرجل والمرأة، والبرِّ والفاجر، والمسلم والكافر، والقوي والضعيف، وفي كل الأحوال حربًا وسِلمًا، وعلى كل أحد دون استثناء؛ ولذا وجب على كل مسلم تحكيم كتابه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في دقيق أموره وجلّها على الصعيد الفردي والجماعي، والأسري، الخاص والعام، والسياسة والاقتصاد، والاجتماع والإعلام، وكل شيء من حكمه وحكمته: أنه عدل لا يظلم أحداً، ولا يحمل هذا وزر ذاك، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ولا يدع محسناً إلا أثابه على إحسانه{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا } [الكهف: ٣٠].

2 – المراد بالحكمة:الغايات المحمودة المقصودة بفعل الله وشرعه، وهي مقدمة في العلم والإدارة، متأخرة في الوجود والحصول، أي: إنها تترتب على الأحوال والأفعال، وتحصل بعدها.

والحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إلى الله يحبها ويرضاها، فهي صفة له تقوم به؛ لأن الله لا يوصف إلا بما قام به، وهي ليست مطلق الإرادة، وإلا لكان كل مريد حكيماً ولا قائل به.

ثانيها: حكمة تعود إلى عباده، هي نعمة يفرحون ويلتذون بها في المأمورات، والمخلوقات، والحكمة لا يحيط بها علماً إلا الله تعالى، وبعضها معلوم للخلق وبعضها مما يخفى عليهم.

والحكمة في أفعال الله تعالى نوعان:

- حكمة مطلوبة لذاتها، كما في قوله تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾} [الذاريات: ٥٦].

- وقال:{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾} [الطلاق: ١٢].

فبين الله أن الحكمة من خلقه الجن والإنس ليعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وهذا أمر محبوب لله تعالى ومطلوب له، وكذلك بين أن من حكمة خلقه السماوات والأرض، وتدبيره لهما علم العباد بقدرة الله وعلمه سبحانه.

- حكمة مطلوبة لغيرها، وتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، ويوضحها قول الله تعالى:{وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾} [الأنعام: ٥٣]، فاللام في قوله:{لِّيَقُولُوٓا۟} دالة على الحكمة من قوله المذكور، وهو امتحان بعض خلقه ببعض، فكبراء القوم يأنفون ويستكبرون عن قبول الحق

عند رؤيتهم ضعفاء قد أسلموا، فيقولون عند ذلك:{أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ}، فهذا القول بعض الحكمة المطلوبة بهذا الامتحان، وهي وسيلة إلى مطلوب لنفسه، فامتحان الله لهؤلاء يترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء، وذلك يوجب آثار مطلوبة للفاعل من إظهار عدله، وحكمته وعزته، وقهره وسلطانه، وعطائه من يستحق عطاءه، ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره، ولهذا قال الله تعالى:{أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ} [الأنعام: ٥٣].

3 - الحكمة الحاصلة من الشرائع:

وأما الحكمة الحاصلة من الشرائع فثلاثة أنواع:

- النوع الأول: حكمة حاصلة من الأمر بفعل مشتمل على مصلحة معلومة بأصل الفطرة والعقل، كالعدل والإحسان، والصدق، أو حاصلة من النهي عن فعل مشتمل على مفسدة معلومة بأصل الفطرة والعقل، كالظلم والكذب، فالعدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل عل فسادهم، والشرع في أمره بالعدل ونهيه عن الظلم ولم يثبت للفعل صفة لم تكن، ولكن لا يلزم من حصول القبح في الفعل بالعقل أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك.

- النوع الثاني:حكمة حاصلة من الأمر بفعل، أو النهي عن فعل بحسب اشتماله على المصلحة والمفسدة التي لا تعرف بخطاب الشرع، فيكون الفعل قد اكتسب صفة الحسن والقبح بخطاب الشرع، كالتجرد في الإحرام والتطهر بالتراب، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، ونحو ذلك.

- النوع الثالث: حكمة يكون منشؤها من الأمر لا من المأمور به،

فيكون المراد من الأمر الابتلاء والامتحان ولا يكون المراد فعل المأمور به ومثاله: أمر الله إبراهيم - عليه السلام - بذبح ابنه إسماعيل - عليه السلام - فأراد الله ابتلاء خليله إبراهيم بعد أن رزقه الولد حتى يكون قلبه كله لله، ولم يكن تحقق ذبح ولده مراداً لله، وفي ذلك يقول الله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾} [الصافات: ١٠٢ - ١٠٦] فلما تحقق ما أراده الله نسخ الأمر، وهو لم يكن مريداً وقوع ذبح ابنه.

وزاد ابن القيم نوعاً رابعاً، وهو ما نشأت المصلحة فيه من الفعل المأمور به والأمر معاً ومثاله: الصوم، والصلاة، والحج، وإقامة الحدود، وأكثر الأحكام الشرعية، فإن مصلحتها ناشئة من الفعل والأمر معاً، فالفعل يتضمن مصلحة، والأمر به يتضمن مصلحة أخرى، فالمصلحة فيها من وجهين.

4 - الأدلة الدالة على الحكمة:

والأدلة الدالة على الحكمة كثيرة جدًّا ذكرها العلماء والفقهاء في كتبهم، وقد حاول ابن القيم حصرها بأنواعها - بعد أن ذكر أن آحاد الأدلة كثيرة يصعب سردها كلها - وقد أوصلها إلى اثنين وعشرين نوعاً ومن هذه الأدلة:

النوع الأول: وهو أعلاها، ما ورد فيه التصريح بلفظ الحكمة قال تعالى: {حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾} [القمر: ٥]، أي: إن الله أرى

الكافرين في آياته - وهي هنا انشقاق القمر - وأتاهم بأنباء زاجرة لهم عن غيهم وضلالهم، كل ذلك حكمة منه سبحانه لتقوم حجته على العاملين، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل.

النوع الثاني: ذكر ما هو من صرائح التعليل، وهو من أجل أو لأجل، قال الله تعالى:{مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾} [المائدة: ٣٢]، فقوله{مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ} متعلق بـ{كَتَبْنَا} بمعنى: السبب في الحكم بشرعية القصاص على ابن آدم لأجل قتل ابن آدم أخاه، وكان ذلك حراسة الدنيا.

النوع الثالث: الإتيان بكي الصريحة في التعليل، كما قال تعالى:{مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ} [الحشر: ٧].

فعلل سبحانه قسمته الفيء بين الأصناف التي ذكرها، كي لا يتناوله الأغنياء دون الفقراء، وقال تعالى:{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

أنا قدر المصائب والبلاء قبل أن يبرأ الأنفس والمصائب والأرض، ومصدر ذلك قدرته وحكمته البالغة التي منها ألاّ يحزن عباده، ولا يفرحهم بما آتاهم إذا علموا أن المصيبة مقدرة كائنة ولا بد، وقد كتبت قبل خلقهم وذلك يهون عليهم ما أصابهم.

النوع الرابع: ذكر المفعول له، وهو علة للفعل المعلل به، قال الله تعالى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩]، فقوله: (تِبْيَانًا) - وما بعدها - الأحسن أن ينصب على أنه مفعول لأجله لدلالة قول الله تعالى:{وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: ٦٤].

وقال تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٤]، وفي الآيتين بيان لتلك، وقال تعالى:{وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: ٥٩] أي لأجل التخويف.

النوع الخامس: التعليل بـ (لعل) فهي في كلام الله تأتي للتعليل المجرد لا للترجي لاستحالته عليه، فإنه إنما يكون فيما تجهل عاقبته{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)} [البقرة: ١٨٣]، وقوله{لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤].

فلعلّ في المواضع المتقدمة قد أخلصت للتعليل للسبب الذي تقدم أولاً، والرجاء الذي فيها متعلق المخاطبين.

النوع السادس: تعليله - سبحانه وتعالى - عدم الحكم القدري والشرعي بوجود المانع منه، فمن الأول قول الله تعالى:{۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى: ٢٧].

بيَّن سبحانه أنه لا يوسع الدنيا - لبعض - الناس سعة تضرهم في دينهم، وهو سبحانه ينزل من رزقه بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، فالمانع من بسط الرزق حصول البغي من الناس، ومن الثاني قول

الله تعـــالى:{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢]، فوصف بعض الرزق بكونه طيباً مانعًا من الحكم بتحريمه.

النوع السابع: إنكار الله سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة بقوله:{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾} [المؤمنون: ١١٥]، وقوله:{أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾} [القيامة: ٣٦].

والأنواع كثيرة والأصل أن يأتي التعليل بالحروف، وقد تدل عليه الأسماء والأفعال، والحق يقال إن السياق له أثر في الدلالة على العلية إن لم تكن الأدلة نصاً في العلية، فينظر فيما يحتمل التعليل وعدمه بحسب السياق.

5 - الحكمة من خلق إبليس ووجود هذه الآثام والشرور في الكون:

في ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله، فمنها: أن يكمل الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة الشيطان، وحزبه ومخالفته ومراغمته وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به سبحانه من الشيطان، والإلجاء إليه سبحانه أن يعيذهم من شره وكيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يمكن أن يحصل لهم بدون خلق الله.

- **ومنها** - أي من الحكم - خوف المقربين من المؤمنين من ذنوبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس، وكيف طرد من رحمة الله تعالى لذنبه؟ فكيف يأمن المقربون بعد ذلك؟ وكيف يأمن المؤمنون الصادقون بعد ذلك؟ إن كان قد طرد إبليس بذنب كيف يعجب بعد ذلك عالم بعلمه؟

فستظل هذه العبودية ملازمة للملائكة المقربين، والأنبياء، والمرسلين والمؤمنين الصادقين لخوفهم من رب العالمين؛ لأنه طرد إبليس من

رحمته بذنب وقع فيه، فالملائكة المقربون إذا ما أمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك مع أنهم لم يخالفوا الله في أمر، كما قال الله عز وجل في شأنهم:{لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ} [التحريم: ٦].

قال النبي صلى الله عليه وسلم :(أطَّت السماء وحق لها أن تَئط ما فيها من موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله)، فهذا جبريل رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم كالحلس البالي من شدة خوفه من الكبير المتعال، وهو أمين وحي السماء، وهكذا، فالملائكة المقربون لما رأوا وشاهدوا ما كان من إبليس ازدادوا خوفاً ووجلاً، فكيف تستخرج العبودية إلا بمثل هذا الابتلاء والتمحيص؟

والأنبياء والمرسلون وهم أعرف الناس بالله ازدادوا خوفاً ووجلاً من رب العالمين، والمؤمنون الصادقون لا يغتر واحد منه بعلمه ولا بعمله، بل يظل دائماً على خوف ووجل؛ لأنه لا يأمن من مكر الله. قال تعالى:{فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩].

ومنها: أي من حكم خلق الله لإبليس: أنه تبارك وتعالى جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر على طاعته وأصر على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر آدم - عليه السلام - عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصي أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل إبليس عبرة لمن أصر، وأقام على الذنب، وجعل آدم عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه فلله في هذا من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة.

ومنها: أي من هذه الحكم أيضاً: أن الله تبارك وتعالى قد جعل إبليس محكّاً يمتحن به خلقه، ليتبين به خبيثهم وطيبهم، والله سبحانه وتعالى

لا يبتلي خلقه، وعباده ليعلم الخبيث من الطيب، فالله علم الخبيث والطيب أزلاً قبل أن يخلق الخبثاء والطيبين، ولكنه أراد أن يميز الخبيث من الطيب من الناس في الدنيا ويمحص الصف، ويجازي العباد وفق أعمالهم لا بمقتضى علمه فيهم.

- قال تعالى:{مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ} [آل عمران: ١٧٩].

- وقال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾} [آل عمران: ١٤٢].

- وقال تبارك وتعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ } [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى:{أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾} [العنكبوت: ٢ - ٣].

– ومنها: أي من الحكم: أن يُظهر الله عز وجل كمال قدرته لخلقه، فالله عز وجل خلق جبريل وجعله رسولاً للأنبياء، فهو أمين وحي السماء الذي به حياة الأرواح، وخلق ميكائيل، وجعله على الأرزاق والأمطار التي بها حياة الأبدان، وخلق إسرافيل ووكله بالصور الذي ينفخ فيه بأمر الله، لتحيا الأبدان مرة أخرى، ففيه حياة الأبدان بعد إماتة الله لها يوم القيامة، وخلق سائر الملائكة، وخلق إبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث، والضد إنما يظهر

حسنه بضده، فلولا القبيح لم نعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم نعرف قدر الغنى، وخلق الله آدم من غير أب ومن غير أم، وخلق حواء من أب دون أم، وخلق عيسى من أم دون أب، وخلق سائر البشر من أب وأم، لنعلم أن الله على كل شيء قدير، إن شاء أن يخلق بغير أب وبغير أم خلق، وإن شاء أن يخلق من أب وأم خلق، فالله سبحانه وتعالى يخلق الأضداد ليظهر كمال قدرته ومشيئته تبارك وتعالى.

- ومنها: أنه سبحانه وتعالى يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن يحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله.

سبحانه من خلق الخلق بحكمته وعدله، فما من شيء في الكون صغر أو كبر علمناه أو جهلناه، رأيناه أم غاب عنا إلا وهو مخلوق لله بعدله وحكمه.

- ومنها: أن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا إلى غير ذلك من هذه المعاني هي أحب العبودية إلى الله سبحانه وتعالى، وهذه العبودية لا تتحقق إلا بالجهاد بكل ما تحمله الكلمة من معنى هو ذروة سنام العبودية، وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها، وما فيها من المصالح إلا الله، لو لم يخلق الله عز وجل إبليس، فكيف تحقق مرتبة العبودية بجهادك لنفسك ولهواك وللشيطان؟

ومنها: أن من أسماء الله: الحكيم، والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي يليق به، فاقتضت حكمته خلق المتضادات، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص.

ومنها: أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه، فهو محمود على عدله ومنعه، وخفضه، وانتقامه، وإهانته، كما هو محمود على فضله، وعطائه ورفعه وإكرامه، فلله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته، ورسله، وأولياؤه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة كماله عليه الحمد التام، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة والنعمة السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته وما ذكرنا من هذه الحكم قطرة من بحر، وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من تحيط بكمال الله وحكمته في خلقه لكل شيء، فإن كان الله تبارك وتعالى قد خلق إبليس لهذه الحكم التي وقفنا على بعضها، فلا شك أن خلق الله لغير إبليس - وهو رأس الشر - لحكم كثيرة من باب أولى، فالله تبارك وتعالى لم يُطلع خلقه إلا على بعض الحكم.

ويكفي العاقل: أن يعلم أن الله عز وجل عليم وحكيم، بهرت الألباب حكمته، ووسعت كل شيء رحمته، وأحاط بكل شيء علمه، وأحصاه لوحه وقلمه، وأن لله في قدره سراً مصوناً وعلماً مخزوناً، احترز به دون جميع خلقه، واستأثر به على جميع بريته، وإنما يصل أهل العلم به وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك، وقد لا يؤذن لهم في ذكرها، وربما كلموا الناس في ذلك على قدر عقولهم وقد سأل موسى

وعيسى وعزير ربنا تبارك وتعالى عن شيء من سر القدر، وأنه لو شاء أن يطاع لأطيع، وأنه مع ذلك يعصى فأخبرهم سبحانه أن هذا سره، وفي هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق.

وعن عمران بن ميمون، عن ابن عباس قال: لما بعث الله موسى وكلمه قال: **(اللهم أنت رب عظيم، ولو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت ألا تعصى لما عصيت، وأنت تحب أن تطاع، وأنت في ذلك تعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون، فانتهى موسى)**.

أ - ما الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين مع أن الله يعلم كل شيء:

نقول في مثل هذه الأمور: إننا قد ندرك حكمتها وقد لا ندرك فإن كثيراً من الأشياء لا نعلم حكمتها كما قال تعالى:{ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾} [الإسراء: ٨٥]، فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه، وجعل الخيل على هذا الوجه، وجعل الحمير على هذا الوجه، وجعل الآدمي على هذا الوجه، وما أشبه ذلك، ولو سألنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها ولو سئلنا ما الحكمة في أن الله عز وجل جعل الظهر أربعاً، وصلاة العصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً، وصلاة العشاء أربعاً، وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعلم الحكمة في ذلك، وبهذا علمنا أن كثيراً من الأمور الكونية وكثيراً من الأمور الشرعية تخفي علينا حكمتها، وإذا كان كذلك فإنا نقول: إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو المشروعة إن منّ الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم تصل إليها فإن ذلك لا ينقصنا شيئاً، ثم نعود إلى جواب السؤال، وهو ما الحكمة في أن الله عز وجل وكل بنا كراماً كاتبين يعلمون ما نفعل؟ فالحكمة من ذلك بيان

أن الله سبحانه وتعالى نظم الأشياء وقدّرها، وأحكمها إحكاماً متقناً حتى إنه سبحانه وتعالى جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كراماً كاتبين موكلين بهم يكتبون ما يفعلون، مع أن - سبحانه وتعالى - عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه، ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله عز وجل بالإنسان، وكمال حفظه تبارك وتعالى، وأن هذا الكون منظم أحسن نظام، ومحكم أحسن إحكام، والله عليم حكيم.

ب – الشر لا ينسب إلى الله:

الشر لا ينسب إلى الله، قال صلى الله عليه وسلم :(والشر ليس إليك)، فلا ينسب الشر لا فعلاً ولا تقديراً ولا حكماً، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلى كي تكويه بالنار، فالمفعول شر ولكن الفعل خير، لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شراً محضًا، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر صار ذلك شرًّا بالنسبة له، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله، فيكون خيراً، قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت{ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾} [البقرة: ٦٦].

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله وكم من إنسان أذنب ذنباً ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيراً منه قبلها؛ لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من عليائها، فهذا آدم عليه - الصلاة والسلام - لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا

بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم قال تعالى:{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ } [الأعراف: ٢٣] فقال تعالى:{ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ } [طه: ١٢٢].

والثلاثة الذين خلفوا بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم حتى ضاقت عليه أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم، صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه - ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبداً، وصارت حالهم أيضاً، بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعينهم قال: {وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾} [التوبة: ١١٨].

فهذه آيات عظيمة تتلى في محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة وهذا شيء عظيم، وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن هاهنا أمر يجب معرفته وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله سبحانه وتعالى، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه فهو خير والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم : الخير بيديك والشر ليس إليك.

ولم يقل والشر بيدك، فلا ينسب الشر إلى الله أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء، فالله لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية، فهذا في المقضي، ومع ذلك فهو وإن كان شرًّا في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضاً، حتى المقضي على كونه شراً ليس شراً محضاً، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر في محل خير في محل آخر ولنضرب لذلك مثلاً: الجدب والفقر هذا شر، لكنه خير باعتبار ما ينتج عنه، قال تعالى:{ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾} [الروم: ٤١] والرجوع إلى الله - عز وجل - من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير، وينتج خيراً كثيراً، فألم الفقر، وألم الجدب، وألم المرض، وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح ولهذا قال:{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} وكم من أناس طغوا بكثرة المال، وزادوا ونسوا الله - عز وجل - واشتغلوا بالمال فإذا أُصيبوا بفقر رجعوا إلى الله وعرفوا أنهم ضالون، فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر، كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه لكنه خير بالنسبة لغيره، أما بالنسبة له فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضاً خير في غير السارق فإن فيه ردعاً لمن أراد أن يسرق وفيه أيضاً حفظ للأموال، لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده امتنع من السرقة فصار في ذلك حفظ لأموال الناس.

فالله - سبحانه وتعالى - لا يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه، ولا منفعة فيه لأحد، وليس له فيه حكمة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب، وقد بين العلماء ما في خلقه لإبليس والحشرات، والكواسر من الحكمة والرحمة، فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيراً وباعتبار آخر شراً، فالله خلق إبليس يبتلي به عباده، فمنهم من يمقته ويحارب منهجه، ويعاديه ويعادي أولياءه، ويوالي الرحمن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته.



ثانيا: التحسين والتقبيح:

هذا الموضوع له علاقة بالموضوع السابق، فالبحث فيه ناتج عن البحث في تعليل أفعال الله هل يحكم عليها بحكم العقل أولاً؟ إن إطلاق التحسين والتقبيح على كل فعل من جهة العقل وحده دون الشرع، أو نفي أي دور للعقل في تحسين الأفعال أو تقبيحها غير صحيح، والمذهب الصحيح في هذه المسألة أنه: ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

1- أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة، ولو لم يرد الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم والظلم يشتمل على فساده، فهذا النوع هو حسن قبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك، لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك، وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح، فإنهم قالوا: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة، ولو لم يبعث الله إليهم رسولا وهذا خلاف النص، قال تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

2- أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسناً، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً، واكتسب صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

3- أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن به العبد، هل يطيعه أم يعصيه، ولا يكون المراد فعل المأمور به، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه{فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾} [الصافات: ١٠٣] حصل المقصود، ففداه بالذبح، وكذلك حديث الأبرص والأقرع والأعمى لما بعث الله إليهم من

سألهم الصدقة،(فلما أجاب الأعمى قال الملك: أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم، فرضي الله عنك وسخط على صاحبيك)، فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به، فهذه الأقسام الثلاثة هي الصواب.

وهناك نقطة مهمة وهي: إن إدراك العقل لحسن الفعل أو قبحه أكثره مجمل، فالعقل لا يحيط بالوجوه والاعتبارات للأفعال كلها؛ ولذلك كان الشرع وإرسال الرسل لابد منه خاصة مع غلبة الهوى؛ ولكن هذا لا يمنع وجود قدر مشترك بين العقلاء في إدراك حسن بعض الأفعال أو قبحها، وإذا تتبعنا نصوص الشرع لوجدنا الدلالة على أن هذا مركوز في الفطرة، ومن الأدلة على ذلك:

1- قوله تعالى:{ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ } [الأعراف: ٢٨ - ٢٩].

فالفاحشة هنا هي طواف المشركين عراة بالبيت رجالاً ونساء، فبين الله أنه لا يأمر به لقبحه، ثم بين الله أنه لا يأمر إلا بما هو حسن.

2- وقال الله تعالى:{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: ٣٣]، ففي الآية علق الله التحريم ببعض الأفعال لفحشها.

3- وقال الله تعالى:{ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا } [الإسراء: ٣٢]، فالله عز وجل علل النهي عن قرب الزنّى بكونه فاحشة.

4- وقال الله تعالى:{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

ٱلرِّزۡقِ} [الأعراف: ٣٢]، فوصف الله بعض رزقه بأنه طيب، وأن هذا الوصف يقتضي عدم تحريمه، فدل على ثبوت وصف للفعل هو منشأ للمصلحة مانع من التحريم، وهذا هو التحسين العقلي عينه.

5- لقد ضرب الله أمثلة عقلية كثيرة دالة على حسن التوحيد ومدح فاعله، وعلى قبح الشرك وذمه وذم فاعله، والأدلة فيه كثيرة، فمن ذلك قول الله تعالى:{ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ } [الروم: ٢٨]. ففي هذا المثل بيان من الله للمشركين أنهم إذا كانوا لا يرضون أن يكون مماليكهم شركاء لهم، فكيف ساغ لهم أن يجعلوا المخلوقين شركاء للخالق، فالخالق أولى بالتنزيه، ونفي الشريك في العبادة، فلو كان الشرك قبيحاً لمجرد النهي عنه، لاكتفى بالنهي عنه فقط، ولم يذكر مثلاً يدل على قبحه في العقول والفطر.

ومنه قول الله تعالى:{ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ } [يس: ٢٣ - ٢٤].

فلم يحتج الله عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل ومقتضى الفطرة؛ لأن من لا يملك دفع ضر عن نفسه فأولى ألاّ يقدر على دفعه عن غيره، فكانت عبادته من كان نافعاً ضلالاً مبيناً.

إن مجرد معرفة حسن الأفعال وقبحها بالعقل قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يترتب عليه الثواب والعقاب، كما أننا نثبت حسن الأفعال وقبحها لذاتها، ومعرفة العقل لذلك، كما أنه له مدخل في

معرفة حسن بعض الأفعال وقبحها، وأما الثواب على فعل الأفعال الحسنة فإنما هو من قبل الشارع والعقاب على فعل الأفعال القبيحة، إنما هو من قبل الشارع، فلا يجب شيء على المكلف قبل ورد الشرع، والثواب والعقاب متوقف على بعثة الرسل، كما قال تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

وتحقيق الحق في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة.

والحق الذي لا يجد التناقض إليه سبيل إن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون العمل القبيح موجباً للعقاب مع قبحه في نفسه، والأوثان، والكذب، والزنا، والظلم، والفواحش كلها في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع.

فالله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل عليهم فضلاً منه تعالى ورحمة، قال تعالى:{وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ} [القصص: ٥٩].

وهذا من فضل الله ورحمته ألاَّ يعذب الناس إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل، قال الله تعالى:{رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥]، فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الحجة إنما قامت بالرسل، وأنه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة، وهذا يدل على أنه تعالى لا يعذب الناس قبل مجيء الرسل إليهم؛ لأن الحجة حينئذ لم تقم عليهم، فالصواب إثبات الحسن والقبح عقلاً ونفي التعذيب على ذلك إلا بعد بعثة الرسل،

فالحسن والقبح العقلي لا يستلزم التعذيب، وإنما يستلزمه مخالفة المرسلين.

ومن الآيات الدالة دلالة صريحة على معرفة العقل حسن الأفعال وقبحها وأنها في ذاتها حسنة وقبيحة قول الله تعالى:{يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ} [الأعراف: ١٥٧]؛ وذلك لأن المعروف الذي يأمرهم به تعالى هو ما تعرفه وتقر بحسنه العقول والفطر السليمة، وأن المنكر الذي ينهاهم عنه تعالى هو ما تنكره العقول والفطر السليمة وتقر بقبحه، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في نفس الآية:{وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ} [الأعراف: ١٥٧]، فهذه الآية تدل دلالة صريحة في أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه.

إن الطيب إذا أحل من الشارع، فقد اكتسب طيباً آخر إلى طيبه، فصار طيباً من الوجهين معاً، وكذلك القبيح إذا نهى الشارع عنه اكتسب قبحاً إلى قبحه، فصار قبيحاً من الوجهين معاً؛ وذلك لأن حسن الأفعال وقبحها ثابتان لذاتها، ويكتشف ذلك بالعقل والشرع معاً.



ثالثاً: فعل الأصلح، معنى الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق:

1 - وجوب فعل الأصلح:

هذه المسألة متفرعة عن مسألة التحسين والتقبيح العقليين، معتقدنا في هذه المسألة: أنه لا يجب فعل الأصلح على الله تعالى، بل له أن يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، فالله أمر العباد بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وأن فعل المأمور به مصلحة عامة لمن فعله، وأن إرسال الرسل مصلحة، وإن كان فيه ضرر على بعض الناس لمعصيته، ففعل المأمور به وترك المنهي عنه مصلحة لكل فاعل وتارك، وأما نفس الأمر وإرسال الرسل فمصلحة عامة للعباد، وإن تضمن شراً لبعضهم وهكذا سائر ما يقدره الله - تعالى - تغلب فيه المصلحة والرحمة والمنفعة، وإن كان في ضمن ذلك ضرر لبعض الناس، فلله في ذلك حكمة أخرى.. وإن كان في بعض ما يخلقه ما فيه ضرر لبعض الناس، أو هو سبب ضرر - كالذنوب - فلابد في كل ذلك من حكمة ومصلحة لأجلها خلقها، وقد غلبت رحمته غضبه.

2- معنى الاستطاعة:

هذه المسألة من أهم المسائل في باب القدر؛ لأنها تتعلق بقدرة العبد واستطاعته التي جعلها الله مناط التكليف، ويتعلق بها أمران مهمان:

أحدهما: هل للعبد قدرة بفعل أم لا؟ والثاني: هل استطاعته قبل الفعل فقط أو معه فقط، أو هي قبل الفعل وبعده؟ وتحدث العلماء في هذه المسألة بالتفصيل فقالوا:

أ - فهناك استطاعة للعبد بمعنى الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الألآت، وهي التي تكون مناط الأمر والنهي، وهي المصححة للفعل،

فهذه لا يجب أن تقارن الفعل، بل قد تكون قبله متقدمة عليه، وهذه الاستطاعة المتقدمة صالحة للضدين، ومثال هذه الاستطاعة قوله تعالى:{وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧]، فهذه الاستطاعة قبل الفعل، ولو لم تكن إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج، ولا عصى أحد بترك الحج، ولا كان الحج واجباً على أحد قبل الإحرام، بل قبل فراغه، ومن أمثلتها قوله تعالى:{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]. فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة، ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط؛ إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة، وهذه الاستطاعة هي مناط الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهي الغالبة في عرف الناس.

ب - وهناك الاستطاعة التي يجب معها وجود الفعل، وهذه هي الاستطاعة المقارنة للفعل الموجبة له، ومن أمثلتها قوله تعالى:{مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [هود: ٢٠].

وقوله:{وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾} [الكهف: ١٠٠ - ١٠١].

فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم، وصعوبته على نفوسهم فنفوسهم لا تستطيع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوا، وهذه حال من صده هواه، أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة، واتباعها، وقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك، وهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة له. وهذه الاستطاعة هي الاستطاعة الكونية التي هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل.

وبذلك نثبت نوعي الاستطاعة، سواء التي هي مناط التكليف، وهذه تكون قبل الفعل، وبها يتعلق الشرع حيث لا يكلف غير المستطيع، والأخرى التي تكون مع الفعل، فهذه يتحقق الفعل بها، وتكون بقدرة العبد وفعله، لكنها لا تقع إلا موافقة للقضاء والقدر.

3- لا تكليف إلا بما يطاق:

لم يكلف الله تعالى الخلق إلا بما يطيقونه، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير{لا حول ولا قوة إلا بالله} نقول: لا حيلة لأحد، وحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله، والثبات عليها إلا بتوفيق الله تعالى، قال تعالى:{لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى:{لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [الأنعام: ١٥٢].



المبحث التاسع

سنة الله في الآجال وقدرة الله وثمار الإيمان بالقدر

المبحث التاسع:
سنة الله في الآجال وقدرة الله وثمار الإيمان بالقدر

أولا: سنة الله في الآجال:

إن الله سبحانه وتعالى قدّر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى:{إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [يونس: ٤٩].

وقال تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا} [آل عمران: ١٤٥].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم :(قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، ولن يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب النار، وعذاب القبر: كان خيراً وأفضل).

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدّر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بالحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب، والله خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة.

ولما قتل في غزوة أحد من المسلمين من قتل، وأخذ المنافقون من ذلك قضية يلونها بألسنتهم، ويلوون المسلمين على خروجهم لقتال المشركين، وإن إخوانهم الذين قتلوا، لو كانوا عندهم، ولم يخرجوا للقتال، ما ماتوا وما قتلوا فرد عليهم القرآن أبلغ الرد، منددا بهم

وبموقفهم، فقال:{وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ} [آل عمران: ١٥٤].

وقال عز وجل:{وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ } [فاطر: ١١].

والمعمر: من يعيش عمراً طويلاً في العادة، ومن ينقص من عمره: من يعيش عمراً قصيراً، قدره بعضهم بما قبل الستين، والضمير في (عُمُرِهِ) عائد على الجنس لا على العين؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره.

وجاء عن ابن عباس في تفسير الآية: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة، ببالغ العمر (أي الطويل) ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله:{وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ} [فاطر: ١١] يقول: كل ذلك في كتاب عنده.

وبعضهم فسّر{وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ} بمعنى ذهب العمر قليلاً.

قليلاً: سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتابه.

ومنهم من فسر نقص العمر بقلة البركة فيه، والزيادة في العمر بإلقاء البركة فيه، فقد جاء في الحديث الشريف:(من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه).

فالآجال سواء كانت قصيرة أو طويلة مقدرة من أسبابها، وليست منفصلة عنها، كما يتوهم عوام الناس، فمن قدر له طول الأجل، قدر له أنه سيتهيأ له من الأسباب، من توافر الغذاء الصحي، وطيب الهواء النقي، وممارسة العمل البدني أو الرياضي، والابتعاد عما يضر بالبدن تناوله؛ من المسكرات أو المخدرات، أو الأشياء الضارة كالتدخين، أو طول السهر، أو ارتكاب المحرمات، فهو بهذه الأسباب يطول عمره، وهذه الأسباب مقدرة كمسبباتها، ومن قدر له قصر العمر، قدر له أن يبتلي بسوء التغذية، أو سوء التهوية، أو الإصابة بعدوى، أو تناول ما يضره ويؤذيه، أو يصيبه حادث في طريق، بأن يموت في كارثة عامة كالزلزال، أو يقتله قاتل عمداً أو خطأ، فيموت وينتهي أجله بواحد من هذه الأسباب أو غيرها، ولكنه مات في وقته المقدر له، وفي " أجله المسمى " عند الله، فلا انفصال في الأقدار بين المسببات وأسبابها بحال.

وقد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب الله فما معنى قوله:{يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ}؟ [الرعد: ٣٩].

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله صلى الله عليه وسلم :(من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه).

وكيف تفسرون قول نوح لقومه:{أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى}؟ [نوح: ٣ - ٤].

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر، وكتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته، فهذا هو الذي يزيد وينقص؛ ولذلك قال تعالى:{يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ } [الرعد: ٣٩]، وأم الكتاب هو: اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه، ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً وأجلاً، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما.

والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلاً، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله، ورزقه، والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا؟ لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر.



ثانيا: قدرة الله عز وجل:

القدر والقدرة والمقدار على الشيء: القدرة عليه، وقدرت الشيء: أقدره قدراً، من التقدير، وفي الحديث: (**فإن غمّ عليكم فاقدروا له**).

وقال تعالى: {وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ} [الزمر: ٦٧] أي: ما عظمّوا الله حق تعظيمه.

والقدير: أبلغ في الوصف بالقدرة من (القادر) و (المقتدر): من اقتدر وهو أبلغ.

وقد ورد اسم الله " القادر " سبحانه اثنتي عشرة مرة، خمس منها بصيغة الجمع، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾} [الأنعام: ٦٥].

- وقال تعالى: {وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾} [المؤمنون: ٩٥].

- وقال تعالى: {أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾} [يس: ٨١].

- وقال تعالى: {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾} [المرسلات: ٢٣].

وورد اسم الله (القدير) سبحانه خمساً وأربعين مرة منها قوله تعالى: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٤٨].

- وقال تعالى: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾} [النساء: ١٤٩].

- وقال تعالى: {يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ٤٠].

- وقال تعالى:{ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ } [الحج: ٣٩].

وورد اسم المقتدر في قوله سبحانه:{وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا } [الكهف: ٤٥].

- وقال تعالى:{فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ } [القمر: ٤٢].

- وقال تعالى:{ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥} [القمر: ٥٥].

والله هو القادر على كل شيء، لا يعجزه شيء ولا يفوته مطلوب، بخلاف خلقه، فهو سبحانه لا يتطرّق إلى العجز ولا يعترضه فتور.

" والقادر " سبحانه هو من يتيسر له ما يريد على ما يريد لظهور أفعاله، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز، كما قال سبحانه:{وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ} [البقرة: ٢٠]. فوصف نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه محيط بهم، (والقدير) هو (القادر)، كما أن (العليم) هو (العالم) والقدير سبحانه كامل القدرة، فبقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبّرها، وبقدرته سوّاها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، وبقدرته يقلب القلوب على ما يشاء ويريد.

قال الشاعر:

وهو القدير وليس يُعجزُه إذا ::: ما رام شيئاً قط ذو سلطان



ثالثاً: ثمار الإيمان بالقدر:

للإيمان بالقدر - كما جاء في القرآن والسنة - وكما فهمه سلف الأمة ثمار مباركة وآثار طيبة، في عقلية المسلم ونفسيته، في وجدانه وإرادته، وعلاقته بنفسه وبربه، وبمن حوله، وما حوله، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة، يشهد بها كل ذي لب، ويلمسها كل ذي بصر، لما لها من تأثير إيجابي في السلوك الخاص والعام، وفي السلم والحرب، وفي اليسر والعسر، والرخاء والشدة، والنعماء والبأساء، ومن أهم هذه الثمار والآثار:

1- الإقدام على عظائم الأمور:

الإيمان بالقدر في حياة المؤمن أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظائم الأمور بثبات وعزم وثقة، ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر في حياة الأجيال الأولى من المسلمين هي التي صنعت تلك العجائب التي سجلها تاريخهم والتي ثبتت الدعوة في الأرض ونشرتها على نطاق واسع في فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها - في قصرها - في التاريخ، وهي التي أقامت هذا البناء الشاهق في كل ميدان من ميادين الحياة، نعم، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال في الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل نشر الدعوة، فقد كانوا لا يخافون الموت؛ لأنهم يوقنون بأن الآجال محددة لا تتأخر ولا تتقدم لحظة واحدة، ولما كانت هذه العقيدة راسخة في قلوب المؤمنين ثبتوا في القتال، وعزموا على مواصلة الجهاد، فجاءت ملاحم تحمل أروع الأمثلة على الثبات والصمود أمام الأعداء مهما كانت قوتهم، ومهما كان عددهم، لقد أيقنوا بقول الله تعالى:{قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾} [التوبة: ٥١].

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له، سواء كان قاعداً في بيته أو في ميدان القتال، ففيم الجبن، وفيم الفرار من القتال خوفاً من الموت؟ فهل القتال هو الذي يقتل؟ أم قدر الله لإنسان ما أن يموت في لحظة معينة في حالة معينة هو الذي يميته؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال؟ وإن كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان؟

هكذا كان الأمر في حسّهم، فأقبلوا على الجهاد في ثقة وثبات وعزم، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقف رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الاطمئنان إلى قدرة الله سبحانه، ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذي نزل عليهم في سورة آل عمران بشأن غزوة أحد، حين قال المنافقون:{هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ} [آل عمران: ١٥٤] فرد عليهم:{قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ} [آل عمران: ١٥٤] وحين قالوا:{لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا} [آل عمران: ١٥٤]" فرد عليهم:{قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ} [آل عمران: ١٥٤] وحين قال الله للمؤمنين:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾} [آل عمران: ١٥٦ - ١٥٨]. وعوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كتب عليه الموت، ولو كان في مضجعه في بيته، وأنه إن لم يكن كُتب عليه الموت في تلك اللحظة، فكل هول الحرب، وكل سهام الأعداء، وسيوفهم لن تصيبه بالموت، وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان في القتال ويموت - بقدر من الله - فأمامه

المثوبة والأجر، وهو الكاسب بهذا القدر الذي قدره له الله؛ لذلك كان القتال في سبيل الله أمراً محبباً إلى نفوسهم، فنصروا الله، فنصرهم، وثبت أقدامهم، كما وعد سبحانه:{إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧].

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافزهم للانسياح في الأرض، سواء لنشر الدعوة، أو طلب الرزق، أو اكتشاف المجهول من الأرض، فكان لهم في كل ميدان نشاط ملحوظ وآثار مشهودة؛ ففي نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً في فترة من الزمن لا تتجاوز قرن، وهي سرعة لا مثيل لها في التاريخ، وانتشر مع الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أرهب أعداء الله.

وانتشر معه كذلك اللسان العربي بسرعة تفوق الوصف في انتشار اللغات في الأرض، وفي ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامي، حتى صار المسلمون أغنى أمة في الأرض، لأنهم يجوبون البحار والقفار تجاراً وصناعاً، فيأتي إليهم المال من كل سبيل، وتتاح معه فرصة العمران والحضارة، وفي ميدان الكشف الجغرافي كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة - أول من ارتادها - ورسموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التي مكنت (فاسكوا داجاما) و (ماجلان)، فيما بعد من القيام برحلاتهما حول أفريقيا وآسيا، كما كشفوا منابع النيل ورسموا خرائطه التي جاء المكتشفون الأوربيون على هداها من بعد ليزعموا أنهم هم المكتشفون، وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقاً وغرباً بهذا الدافع الإيماني العميق.

2- القضاء على الكسل والتواكل:

إن جموع المسلمين قد انحرفت في العصور الأخيرة في عقيدة القدر بشأن ما يجري في الحياة الدنيا، لقد أصابهم التواكل فيما أصابهم من انحرافات، وأدى بهم التواكل إلى العجز والكسل والقعود، لقد فهم - بعض الناس - من معنى أنه لا يحدث في الكون إلا ما يريده الله، أنه لا حاجة للإنسان أن يعمل، فإن قدر الله ماض سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فلا ضرورة للكد في طلب الرزق لأن مالك سوف يأتيك، ولا ضرورة للنشاط والحركة لأنها في زعمهم ضد التوكل الصحيح، كما فهموا كذلك من معنى التسليم لقدر الله: القعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر، أو مرض، أو جهل، أو حتى معصية، لأن كل ذلك مقدر من عند الله، فلا ينبغي مقاومته إنما ينبغي الاستسلام له! وهذا التواكل وهذه السلبية ليست من الإسلام في شيء على الإطلاق، وإلا فلو كانت من الإسلام، فكيف غابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن صحبه الكرام الذين تلقوا عنه المفاهيم الصحيحة لهذا الدين؟

والفهم الصالح لم يفهم قط من عقيدة القدر هذا الفهم الخاطئ الذي يلغي مسئولية الإنسان عن عمله؟

لقد فهم المسلمون من درس أحد أن ما وقع لهم كان مقدراً لهم عند الله، ولكنه كان في ذات الوقت من عند أنفسهم بسبب معصيتهم للرسول صلى الله عليه وسلم :{أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ
قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ

ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾} [آل عمران: ١٦٥ - ١٦٦].

فقد وعى المسلمون من الدرس أن كون الهزيمة تمت بقدر الله لا ينافي أنها في ذات الوقت{مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ } أي: أن وقوع شيء بقدر الله لا ينفي مسؤولية الإنسان عن خطئه، فليس لمخطئ أن يهز كتفيه ويقول: إنما وقع الخطأ مني بقدر من الله، ولإن قدّر الله ألا أخطئ لما أخطأت، فلست مسؤولاً عن الخطأ، كلا: إن الإيمان بالقدر لا يتنافى فيه أن يكون الحدث مقدراً من عند الله، وأن يكون الإنسان مسؤولاً عن عمله في ذات الوقت، كذلك وعى المسلمون من وقعة أحد وأحداثها درساً آخر.

أن عليهم أن يسلموا لقدر الله، ولكن ما معنى التسليم؟ هل معناه القعود عن تغيير ما أصابهم، ولو أنه قد أصابهم بقدر من الله؟

إنما قال لهم:{فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ } [آل عمران: ١٥٣].

فالحزن يفتت العزيمة ويوهنها، وهو الأمر الذي لا يريده الله لهم، فوجّههم إلى التسليم بقدر الله لكيلا يحزنوا وتتفتت عزيمتهم، ولكن هل طلب منهم الاستسلام لما أصابهم بمعنى عدم العمل على تغييره.

إن أحداث المعركة سارت في خط مختلف تماماً، فقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم مشاعر المسلمين وعزائمهم كما جمع صفوفهم ليدخل بهم المعركة مرة أخرى على أثر الهزيمة. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:{ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ

فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾} [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

لقد صرف الله أعداءهم فلم تقع المعركة، ولكنهم كانوا قد استعدوا للقتال تماما، استعدوا له بأرواحهم، ومشاعرهم، فجمعوا عزائمهم رغم تخويف الناس لهم وعزموا على لقاء العدو متكلين على الله، وهذا هو التوكل الحق الذي يطلبه الله من المسلمين.

إن القعود عن تغيير الأمر الواقع بحجة أنه واقع بقدر من الله جهالة عظيمة لا تنبغي للمسلم، نعم إن ما وقع بالفعل قد وقع بقدر من الله - وإن كان لا ينفي مسؤولية الإنسان - ولكن من يعلم ما يكون عليه قدر الله غداً، بل في اللحظة القادمة، هل علم ذلك القاعد المتواكل أن قدر الله القادم لن يكون مغايراً لقدر الله الواقع؟ أليس في الاحتمال أن الله قد قدر للحظة القادمة قدراً غير القدر الذي كان في اللحظة الماضية؟ فكيف يقعد عن العمل بزعم أنه متوكل على الله مستسلم لقدره؟

إن الفهم الصحيح للإيمان بالقدر، لا ينفي مسؤولية الإنسان عن عمله، ولا يدعو إلى القعود عن تغيير الواقع، لا يدعو إلى التواكل وعدم الأخذ بالأسباب انتظاراً لقدر الله، وذلك هو الفهم الذي ينبغي أن يعود المسلمون إليه، ليزول عنهم ما أصابهم من فقر، وجهل، ومرض، وتواكل، وعجز، وما ترتب على ذلك كله من غلبة عدوهم عليهم، وهوانهم على أنفسهم وعلى الناس.

3- الثبات في مواجهة الطغيان:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أنه يهب صاحبه ثباتاً ورسوخاً في مقاومة الباطل ومواجهة الظلم والطغيان، وإنكار المنكر، لا يهاب فرعوناً متألهاً ولا طاغوتاً متجبراً، وذلك أن الناس عادة يخافون على أمرين نفيسين عندهم وهما:

العمر والرزق، والعمر محتوم، والرزق مقسوم ولهذا وقف المؤمنون في وجه الطغاة والجبارين، ولم يعبؤوا بجبروتهم، ولم يهنوا أمام قوتهم وطغيانهم، وفي عصرنا رأينا العلماء والدعاة الشامخين يواجهون المستعمرين، وأذناب المستعمرين من الملوك والرؤساء، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله.

فالإيمان بالقدر من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثمّ تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال، فهذا خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة وأدرك ذلك بكى وقال: ما من عمل أرجى عندي بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، بتها وأنا متترس والسماء تنهل عليّ، وأنا انتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد، لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء، لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدّر لي إلا أن أموت على فراشي.

وقد تصدى خالد لطغيان الفرس والروم معاً.

4- الصبر عند نزول المصائب:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الصبر عند نزول المصائب، فالمؤمن بالقدر لا يسيطر عليه الجزع، والفزع، ولا يستبد به السخط والهلع، بل يستقبل مصائب الدهر بثبات، كثبات الجبال فقد استقر في أعماقه، قول الله تعالى:{مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ} [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التي تعين المؤمن على الشدائد والمصائب والبلايا، فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرس في نفوس أفراد الأمة الإسلامية هذا الإيمان ويرشدهم ويعلمهم كيف يتعاملوا مع المصائب والشدائد، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً لها أو ابناً لها في الموت، فقال للرسول:(ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى).

ففي قوله صلى الله عليه وسلم :(إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى) معناه: الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى وتقديره أن هذا الذي أخذ منكم كان له لا لكم، فلم يأخذ إلا ما هو له، فينبغي ألاَّ تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه وديعة، وقوله صلى الله عليه وسلم :(وله ما أعطى) معناه أن ما وهبه لكم ليس

خارجاً عن ملكه، بل هو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، وقوله صلى الله عليه وسلم :(وكل شيء عنده بأجل مسمى) معناه: اصبروا ولا تجزعوا، فإن كل من يأت قد انقضى أجله المسمى فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم والله أعلم، وهذا الحديث من قواعد الإسلام المشتملة على جمل من أصول الدين، وفروعه، والآداب، والمراد بأصول الدين هنا الإيمان بالقضاء والقدر.

ومن الأذكار التي علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمة قوله صلى الله عليه وسلم :(**لا إله إلا الله وحده لا شريك له اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد**).

وفي الحديث استحباب هذا الذكر عقب الصلوات، لما اشتمل عليه من ألفاظ التوحيد، ونسبة الأفعال إلى الله، والمنع والإعطاء وتمام القدرة.

والمسلم يرضى ويسلم ويسلي نفسه بالصبر الجميل عند نزول المصائب، قال عز وجل:{وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ} [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وتعلم الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء العظيم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(**ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل**

القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدلــه مكانــه فرجــاً)، قال: فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال:(بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها).

5- الرضا والقناعة بما قسم الله:

ومن ثمار الإيمان بالقدر: رضا المؤمن بما قسم الله، وقناعته بما رزق الله، وهذا يثمر ثمرات طيبة في نفسية المؤمن وحياته.

أولها: عن القلب، فمن الناس من لو أوتي وادياً من ذهب لابتغى ثانياً، ولو أوتي ثانياً لتمنى ثالثاً، ومثله كجهنم يقال لها: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟

والغنى الحقيقي ليس إلا غنى النفس الذي قال عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :(ليس الغنى عن كثرة الغرض، إنما الغني عن النفس).

وقال صلى الله عليه وسلم :(ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس).

وقال الشاعر:

إن الغــــنى هــــو الغــــنى بنفســـه :: ولو أنـــه عـــار المناكـــب حـــاف
ما كل ما فـــوق البســـيطة كافيـــاً :: وإذا قنعـــت فـــبعض شـــئ كـــاف

ولا يعرف هذا الغنى النفسي إلا من رضى بما قسمه الله، وقنع به.

والثاني: الإجمال في الطلب: فهو يسعى في رزقه، ويكدح في حياته، ولكن بإجمال واعتدال، وليس كأولئك الذين يلهثون أثناء النهار والليل مكدودي الأجسام، مشتتي القلوب، مهمومي النفوس، لا يشعرون بهدوء بال، ولا براحة نفس، ولا باطمئنان فكر، فإن حصلوا على

المزيد ازدادوا لهثاً وهما إن أخفقوا امتلؤوا نكداً وغماً، وفي الحديث:(إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب).

وثالثها: ألا يتطلع إلى ما ليس في وسعه، وليس من شأنه، ويرضى بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره وفي حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمني الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض فقراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكن لهن ما للرجال، فأنزل الله:{وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ} [النساء: ٣٢].

إن الإيمان بالقدر يبعث إلى القناعة، وعزة النفس، والإجمال في الطلب، وترك التكالب على الدنيا، والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أسمى فلاحه، ورأس نجاحه قال الشاعر:

أفادتني القناعة كل عز :: وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال :: وصير بعدها التقوى بضاعة
تجز ربحاً وتغنى عن بخيل ::: وتنعم في الجنان بصبر ساعة

6 – العز في طلب الحوائج:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أن يطلب المؤمن حاجته عند من هي عنده بعزة نفس لا يطأطئ رأسه ولا يذل نفسه ولا يدني ظهره لمخلوق، إن الله تعالى كتب العزة للمؤمن فلا ينبغي له أن يفرط فيها، قال عز وجل:{وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨].

فلا يحل لمؤمن أن يذل نفسه لمخلوق مثله من أجل حاجة عنده، فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه - عبد الله بن عباس - هذه الكلمات العظيمة:(احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف).

7 – السكينة وراحة النفس وسكون القلب: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن القدح المعلى والنصيب الأوفى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر.

وهذا ابن تيمية يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن:

ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين، فكم من الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم، واكتشف أنه مصاب بداء خطير - كالسرطان - مثلاً فترى هذا الطبيب يحتار في كيفية إخبار هذا المريض ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر، وما أن يعلمه بمرضه ويخبره بعلته، إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية وصدر رحب، وسكينة وهدوء، لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر، فكتبوا في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة، فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره.

ومليحة شهدت لها ضراتها ::: والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في ذلك - الكاتب المشهور " ر. ن. سي. بودلي " مؤلف كتابي (رياح على الصحراء) و (الرسول) وأربعة عشر كتاباً آخر، والذي أورد رأيه " دبل كارينجي " في كتابه " دع القلق وأبدأ الحياة " في مقالة بعنوان (عشت في جنة الله) يقول بودلي: في عام 1918م وليت ظهري للعالم الذي عرفته طيلة

حياتي، ويممت وجهي شطر أفريقيا الشمالية، الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هنالك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، واتخذت مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد صلى الله عليه وسلم وعنوانه (الرسول)، وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان والرضا بالحياة، وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم - بوصفهم مسلمين - يؤمنون بالقضاء والقدر، ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً عل أمر، إنهم يؤمنون بأن (ما قدر يكون) وأن الفرد منهم (لَن يُصِيبَه إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ له)، وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيادي كلا. ثم أردف قائلاً: ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه، هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادي (الرون) في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، ولكن العرب لم يشكو إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة (قضاء مكتوب)، لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتهم، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من

ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد.

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً فانفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب وانتابني القلق والهم، وسألت صاحبي من الأعراب: ماذا عسانا أن نفعل؟ فذكرني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ، وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوءهم، بل مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام.

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله: قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل - أن مرض النفوس، والسكيرين الذي يحفل بهم أمريكا، وأوربا - ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها، إنني لما أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا.

وأخيراً ختم كلامه بقوله: وخلاصة القول: إنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء - ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير.

8 – المؤمن لا يعيش بين (لو) و (ليت):

إن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر وخوفه من المستقبل.

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل شهوراً وأعواماً يعاني آلامها، ويستعيد ذكرياتها القائمة، متحسراً تارة، متمنياً أخرى، شعاره: ليتني فعلت، وليتني تركت، وأني فعلت كذا لكان كذا، وقديماً قال الشاعر:

ليت شعري وأين من " ليتُ "؟ ::: إن " ايتا " وإن " لوّا " – غناء

ولذا ينصح الأطباء النفسانيون، والمرشدون الاجتماعيون، ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولّى لا يعود.

ما مضى فات، والمؤمل غيب ::: ولك الساعة التي أنت فيها

وقد صور هذا المعنى أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويراً بديعاً لطلبته حين سألهم: كم منكم مارس نشر الخشب؟ فرفع كثير من الطلبة.. أصابعهم، فعاد يسألهم: وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه، وعندئذ قال المحاضر: بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب، فهي منشورة فعلاً. وكذلك الحال مع الماضي: فعندما ينتابكم القلق لأمور حدثت في الماضي، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة!!

وقد نقل هذا التصوير " ديل كارينجي " في كتابه " دع القلق وأبدأ الحياة "، كما نقل قول بعضهم: لقد وجدت أن القلق على الماضي لا

يجدي شيئاً تماماً، كما لا يجديك أن تطحن الطحين، ولا أن تنشر النشارة، وكل ما يجديك إياه القلق هو: أن يرسم التجاعيد على وجهك، أو يصيبك بقرحة في المعدة.

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون، وينشرون المنشور، ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقلبون حسرة ما مضى، وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار السقيمة هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه، وقدره فلا يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاه الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم.

إن شعار المؤمن دائماً: (قدر الله، وما شاء فعل، الحمد لله على كل حال)، وبهذا لا ييأس على ما فات، ولا يحيا في خضم أليم من الذكريات، وحسبه أن يتلو قوله تعالى:{ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾} [التغابن: ١١].

وقال صلى الله عليه وسلم :(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان).

فقد أمر المؤمن في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه سواء في دينه أم دنياه، والاستعانة بالله على ذلك فهو الذي يهيئ له الأسباب، ويزيل من طريقه العوائق، كما قال تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾} [الفاتحة: ٥].

وقال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ::: فأول ما يجني عليه اجتهاده

ومن العجز المذموم هنا: إلقاء الأحمال على القدر، والاحتجاج به في الإعفاء من المسؤولية، وقديماً قيل: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير، وحديثاً قال الشاعر الفيلسوف الدكتور محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله وقدره، أما المسلم القوي يعتقد أنه قدر الله الذي لا يغلب وقضاؤه الذي لا يرد، وقد روي أن بعض الصحابة - في زمن الفتوح الإسلامية - سأله أحد قادة الفرس: من أنتم؟ وما حقيقتكم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكم الله بنا، وابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة في السماء لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا.

إن من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم إذا أصابه شيء من شدائد الدنيا وابتلاءاتها - وما أكثرها - ألا يسلم نفسه للتحسر والأسى على ما فاته، فيصبح ويمسي، وهو يمضغ كلمات الأسى والأسف، ويقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا على سبيل التحسر والتمني، ويجتر الذكريات الحزينة، بل أمره أن يرد الأمر هذا إلى قدر الله، ويسلم أمره وقضاءه قائلاً: قدر الله وما شاء الله فعل، معتبراً أن الخير فيما اختاره له، ثم هو لا يقدر على غير ذلك، وليتجه - بعد ذلك - للمستقبل ويعمل ويبني وينتج، لا إلى (اللّولوة) التي يقول فيها: لو أني فعلت، ولو أني تركت فإن: (لو) هذه (لو) المتمنية والمتحسرة تفتح عمل الشيطان، وعمله ليس وراءه إلا الضياع والخسران.

9 - الخوف والحذر من الله: فالمؤمن بالقدر على حذر من الله، قال تعالى:{فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩].

فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات، كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد.

10 - الخلاص من الشرك:

لا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل المعذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك، فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هذا الكون وما فيه صادر عن إله واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً.

11 - الاستقامة: والإيمان بالقدر من أكبر العوامل التي تكون سبباً في استقامة المسلم وخاصة في معاملته للآخرين، فحين يقصر في حقه أحد أو يسيء إليه، أو يرد إحسانه بالإساءة، أو ينال من عرضه بغير حق، تجده يعفو ويصفح؛ لأنه يعلم أن ذلك مقدر، وهذا إنما يحسن إذا كان في حق نفسه، أما في حق الله، فلا يجوز العفو ولا التعلل

بالقدر؛ لأن القدر إنما يحتج به في المصائب لا في المعايب.

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره{ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ} [النحل: ٥٣]، ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال.

قال تعالى:{ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ } [القصص: ٧٦ - ٧٨].

ويكون المؤمن بالقدر على الاستقامة في حالة السراء والضراء.

12- القضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات:

الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لأنه هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم حين يحسد غيره إنما يعترض على المقدور، وهكذا فالمؤمن يسعى لعمل الخير، ويحب للناس ما يحب لنفسه، فإن وصل إلى ما يصبو إليه حمد الله وشكره على نعمه، وإن لم يصل إلى شيء من ذلك صبر ولم يجزع، ولم يحقد على غيره ممن نال من الفضل ما لم ينله، لأن الله هو الذي يقسم الأرزاق، فيعطي ويمنع، وكل ذلك ابتلاء وامتحان منه سبحانه وتعالى - لخلقه.

قال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمور الدنيا، لأنه إن كان - أي هذا الرجل - من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو مصيره إلى الجنة وإن كان - هذا الرجل - من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمور الدنيا، وهو يصير إلى النار.

فالحسد يحرق صاحبه، والمحسود قد يُصابُ بالعين إن كانت العين خبيثة لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:(إن العين..). وقال صلى الله عليه وسلم :(العين حق، ولو كان شيء سابق القدر، سبقته العين).

وقال صلى الله عليه وسلم :(لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا).

وعلاج الحسد بالرضا بالقضاء والقدر، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى المؤمن بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته. يعني: إذا لم يحول الذي في نفسه إلى كلمات حاقدة حاسدة أو إلى أفعال حاقدة حاسدة لا يضره ما تحدث به النفس أحياناً، فالنفس قد جبلت على مثل هذا.

فالذي يؤمن بالقدر يحمل قلباً نظيفاً طاهراً من الغل والحقد والحسد والغش والضغينة لإخوانه؛ لأنه إن نظر إلى أخ من إخوانه ووجده في نعمة فهو يعلم يقيناً أن الذي أنعم عليه بهذا هو الله، فهو يحب لأخيه النعمة ويتضرع إلى الله سبحانه وتعالى - الذي رزق أخاه - أن يرزقه بما رزق أخاه، فهذه كلها أمراض القلب لا تداوى إلا بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، والمؤمن بالقدر يعلم بأن الله يعطي ويمنع لحكمه، فإن من العباد من لا ينفعه إلا الغنى، ولو أفقره الله

لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمه الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا المرض ولو صح لأفسده ذلك فلا يوجد شيء في الكون بدون حكمة وبغير حكمة، فالله هو الحكيم الخبير، سواء علمنا الحكمة أم جهلناها، فالله جل وعلا يقدر بحكمة وعلم.

13- الاستعانة بالله:

ومن ثمار الإيمان بالقدر يعلم العبد يقيناً أن الأمر كله بيد الله، خلقاً ومشيئة، وتقديراً، وإيجاداً، فالمستعان على حصول المراد هو الله وحده دون غيره؛ ولهذا فهو يستعين بالله على حصول مراده، ولأمر ما كانت سورة الفاتحة تقرأ في كل صلاة، بل لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، كما جاء في الحديث الشريف وفي هذه السورة الكريمة، قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾} [الفاتحة: ٥]، فإذا استعان بالله وباشر السبب وحصل المقصود فهذا من فضل الله، وإن لم يحصل المقصود لم ييأس المسلم، فقد يكون في تأخير حصول المطلوب خير لا تعرف وجهه، فالله يعلم ونحن لا نعلم، وما نعلمه من حكمته تعالى شيء قليل للغاية بالنسبة لما لا نعرفه من هذه الحكمة، وعليه - أي على المسلم - أن يجدد السعي مستعيناً بالله ولا يعجز عن ذلك ولا يقول: لو إني فعلت كذا كان كذا، فإن هذا الكلام لا يفيد شيئاً وإنما يفتح باباً لعبث الشيطان.

14- الاعتماد على الله وحده:

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يباشر الأسباب بيده، ولكن اعتماده على الله وحده لا على السبب، وهكذا كان حال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد اختفى صلى الله عليه وسلم في الغار، وهذا منه صلى الله عليه وسلم مباشرة لسبب الخلاص من المشركين ولكن ما كان اعتماده في الخلاص من المشركين على هذا السبب - ولا على غيره من الأسباب - ولكن كان اعتماده على الله وحده، قال تعالى:{ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠].

فثقته صلى الله عليه وسلم واطمئنانه وسكينته وأمله في الخلاص، إنما كان ذلك بسبب تلك المعية الخاصة المتأنية من اعتماده على الله لا بسبب الاختفاء بالغار، وفي معركة بدر بعد أن نظم صلى الله عليه وسلم الجيش، وباشر الأسباب المادية للمعركة رجع إلى العريش المنصوب له يدعو ربه، ويكثر من الدعاء؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن النصر بيد الله، والاعتماد في تحصيله يجب أن يكون على الله لا على الأسباب التي باشرها، وإن كان لابد من مباشرتها، وهذا هو التوكل الصحيح الذي هو من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر، ومن ثمرات التوكل كفاية الله{وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ} [الطلاق: ٣].

15- الاعتراف بفضل الله:

والإيمان بالقدر يجعل موقف صاحبه عند فعل الحسنات موقفاً صحيحاً سليماً تترتب عليه طهارة قلبه من أرجاس كثيرة، وبالتالي يستقيم سلوكه وتزكو أخلاقه؛ وتفصيل ذلك أن صاحب الإيمان بالقدر

يشاهد القدر ويستحضره في ذهنه عند فعل الحسنات وعمل الصالحات، وهذه المشاهدة تثمر في نفسه الاعتراف بأن ما صدر منه هو بمحض فضل الله عليه ليس له فيه شيء، وهذا يؤدي بدوره إلى قمع نوازع الكبر والغرور والعجب بنفسه والمن على الناس، ونحو ذلك من الأقذار القلبية؛ لأن هذه الأقذار إنما تكون في الإنسان لاعتقاده أن فيه من معاني الامتياز على غيره ما يدعوه إلى التكبر عليهم، والعجب بنفسه، والغرور ونحو ذلك، سواء كانت هذه المعاني أعمالاً صالحة، أو عبادة، أو فعل حسنات، أو قوة، أو علماً، أو سلطاناً، أو مالاً، أو كثرة أتباع ونحو ذلك، فإذا شاهد القدر عند فعله الحسنات، أو عند حصول شيء مما ذكرنا في يده، وعلم أن ذلك كله من عند الله وحده وما حصل على يديه هو محض فضل الله عليه، زال منه العجب والكبر والغرور والمنة على الله وعلى الناس، وبالتالي تجره هذه المشاهدة وما يترتب عليها إلى حمد الله وشكره وهكذا يفعل المؤمنون.

قال تعالى:{وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ} [الأعراف: ٤٣]، وهداية الله للعبد تتضمن الأعمال الصالحة التي يعلمها، والعلم بالحقائق الدينية والعمل بها ونحو ذلك، كما أن مشاهدة القدر عند فعل الحسنات تفيد المسلم من ناحية أخرى هي: استدامة افتقاره إلى الله وتصرفه بهذه الكيفية، وتثبته الدائم برحمة الله، وطلب عفوه، وعدم الالتفاف إلى عمله، واعتقاده الجازم بأن فوزه في الآخرة إنما يكون بمحض فضل الله ورحمته لا بعمله؛ لأن عمله الطيب إنما هو محض فضل الله فلا يستحق به الجنة، وإنما يستحقها بفضل آخر من الله تعالى، وبهذا جاء في الحديث الشريف:(لن يدخل أحدكم الجنة

بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:(ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل).

لكن قد يقول بعض الناس: قولكم منقوض بقوله تعالى:{تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]، فدخول الجنة إنما يكون بالعمل فكيف تنفونه؟ أو تقللون من شأنه؟ والجواب: أن الآية الكريمة دلت على أن العمل سبب لدخول الجنة، فالباء في قوله تعالى{بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]" هي باء السببية، ونحن لا ننكر الأسباب، ولا كون العمل الصالح سبباً للجنة، الذي نتكلم فيه وننفيه أن يكون العمل عوضاً وثمناً مكافئاً لدخول الجنة، وهذا ما نفاه الحديث الشريف، فالباء في قوله صلى الله عليه وسلم :(لن يدخل أحدكم الجنة بعمله): هي باء المعاوضة والثمنية، كما في قول القائل: اشتريت هذا القلم بدرهم، فالعمل ليس عوضاً، ولا ثمناً لدخول الجنة، ولا يصلح أبداً أن يكون عوضاً لها. ولتقريب هذا المعنى إلى الأذهان نقول: إن الإنسان لو عبد ربه عمره كله، وأتى بالصالحات، فأية نسبة بين ما قدم من عمل في عمره المحدود وبين نعيم الجنة الدائم الممدود؟ أية نسبة بين عمل في زمن يتناهى، هو عمر الإنسان، وبين نعيم في زمن لا يتناهى هو نعيم الجنة؟ فلابد إذن من فضل الله ورحمته ليظفر المؤمن بالجنة، وهذا المعنى لا يمكن تحصيله وانصباغ النفس به إلا بالمشاهدة الدائمة للقدر عند فعل الخير والحسنات.

وفائدة أخرى لمشاهدة القدر عند فعل الحسنات هي أن المسلم إذا فعل خيراً لغيره وهذا من الحسنات، قد تتحرك فيه نوازع المنة على الغير وحب الاستعلاء عليه، والاستشراف إلى طلب العوض منه، فهذه النوازع تموت إذا شاهد القدر، وهو يفعل الخير لغيره؛ لأنه بهذه المشاهدة يعلم أنه واسطة فقط لإيصال ما قدره الله من خير لذلك الغير، فلا داعي إذن لأنه يَمُنّ هو على هذا الغير أن يستعلي عليه أو يتطلع إلى العوض منه، أرأيت لو أن سيداً أرسل خادمه بهدية إلى شخص أيكون من حق الخادم أن يمن على المهدي إليه، أو يستعلي عليه بهذه الهدية، وهو محض واسطة لإيصالها إليه؟

وإذا كان صاحب الإيمان بالقدر لا يمن ولا يستعلي على من فعل له خيراً، فمن باب أولى ألاَّ يكون كذلك إذا لم يفعل له شيئاً، وبهذا المسلك الحميد من صاحب الإيمان بالقدر، أي: بفعله الخير للناس دون منة، أو استعلاء عليهم، أو طلب العوض منهم يكون من الذين قال الله فيهم{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾} [الإنسان: ٩].

16- الاستغناء بالخالق عن الخلق:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الاستغناء بالخالق عن المخلوق، والحرص على رضا الله وحده، ورجاؤه، والخوف منه، والتوكل عليه، والاستعانة به، وتفويض الأمر إليه، والانكسار بين يديه، وتبليغ رسالات الله بدون وجل، ولا تردد، ولا خشية من أحد على وجه الأرض{ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾} [الأحزاب: ٣٩].

وقال صلى الله عليه وسلم :(من أرضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى

الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس).

فالسعيد الذي لا يعنيه إلا رضا الله، ولا يعنيه الشر إطلاقاً، لا يلتفت إلى الخلق؛ لأنه على يقين أن رزقه بيد الخالق، لا بيد الخلق، وأن قلوب الخلق لا تقبل إليه بالحب والبغض إلا بتقدير الخالق، فهذا لا يعلق قلبه بالمخلوقين لا بثنائهم، لا ببغضهم، ولا بذمتهم، ولا بحمدهم، بل يعلق قلبه بربهم جل جلاله، فلا يعنيه إلا أن يقول: قال الله: قال رسوله بما يرضي الله سبحانه لا بما يُحصّلُ به رضا الناس، فمن قال لله لا يخشى في الله لومة لائم، بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، أسعده الله في الدنيا والآخرة.

17- الاعتراف بالذنب والمسارعة للمغفرة والتوبة:

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يشاهد نفسه عند فعل السيئات وارتكاب المنهيات، ولا يحتج بالقدر على عصيانه؛ لأنه لا حجة لأحد فيه، كما بيّنا، وإنما يرجع إلى نفسه ليوبخها من كبوتها حالاً كما ينهض من الوحل، إذا وقع فيه ويعقد العزم على عدم العودة إلى الذنب، ويتوجه إلى الله بالاعتراف بالذنب بانكسار قلب، وبهذا كله علّمنا القرآن، وضرب لنا الأمثال، وقص علينا موقف أنبيائه الكرام في مثل هذه الأحوال، قال تعالى عن نبيه آدم عليه السلام:{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]، وقال تعالى عن موسى عليه السلام:{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي} [القصص: ١٦].

وفي الحديث الشريف:(**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**)، أو كما

قال صلى الله عليه وسلم، أما من يشاهد القدر عند فعله السيئات محتجاً به دافعاً المسؤولية عن نفسه، فمثله مثل إبليس حيث قال كما أخبرنا الله عنه:{قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾} [الحجر: ٣٩].

وكان عاقبته كما هو معروف الطرد من رحمة الله.

هذه بعض ثمار الإيمان بالقدر وغيرها كثير:

- كأداة عبادة الله عز وجل، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه بالإيمان به، وقوة الإيمان، فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله في ذلك السبيل.

- الهداية، كما قال تعالى:{ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠].

- الكرم، فالذي يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغنى بيد الله وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك، فإنه ينفق ولا يبالي.

- إحسان الظن بالله قوة الرجاء، فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوي الرجاء به في كل أحواله.

عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين المشعوذين والتمسح بأتربة القبور، ودعاء غير الله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً.

- ومن ثمرات الإيمان بالقدر: السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية، والتسليم لله في ذلك كله.

- عدم اليأس من انتصار الحق: فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين، وأن قدرة الله في ذلك نافذة لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، لا يعرف إليه طريقاً مهما احلولكت ظلمة الباطل.

- علو الهمة، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم.

" وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين "



الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالقدر في هذا الكتاب، وقد سميته " الإيمان بالقدر "، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد، والمنة، ما كان فيه من خطأ، فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه، وهدايته أو تعليمه أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى:{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: ١٠].

وبقول الشاعر:

إلهي لا تعذبني فإني ::: مقر بالذي قد كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي ::: وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا ::: وأنت عليَّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها ::: عضضت أناملي وقرعت سني
يظن الناس بي خيراً وأني ::: لشر الناس إن لم تعف عني

(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)



الفهــرس

* * *